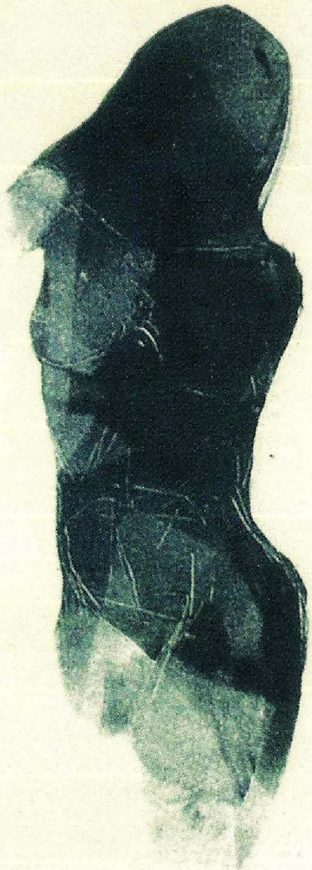
M O H A M M E D   A L - S A L E M

رواية

شغفها حبّا

حكاية مطر



محمد السالم

شغفها حبّا

بسم الله الرحمن الرحيم

شغفها حبّا

١٤٣٧هـ - ٢٠١٥ م

ح محمد بدر السالم ، ١٤٣٧ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السالم ، محمد بدر
شغفها حبا. / محمد بدر السالم - الاحساء ، ١٤٣٧ هـ
..ص ؛ .. سم

ردمك : ٨-٩٩٨٠-٠١-٦٠٣-٩٧٨

١- القصص العربية - السعودية أ.العنوان
ديوي ٨١٣,٠٣٩٥٣١ ١٤٣٧/١٣٩١

رقم الإيداع: ١٤٣٧/١٣٩١
ردمك : ٨-٩٩٨٠-٠١-٦٠٣-٩٧٨

لطلبات التوزيع:

imohammed.b1@gmail.com

رسالة قصيرة:

كلما صفعتني الحياة مدّدتِ كفكِ لتمسحي آلامي وحزني.

إهداء:

إلى كفيها .

وقعت أحداث هذه الرواية في فترتين زمنيتين مختلفتين

١٩٩٠ - ٢٠١٣

وكما يتملص أغلب الرواة خوفًا من ذنب الإدانة، أقول:

جميع أحداث هذه الرواية وشخوصها من نسجُ الخيال.

إن كنت، أيها القارئ العزيز، تبحث عن الحقيقة فستجدها في مكانٍ واحد فقط. شارع غرام.

الفصل الأول

سين (1)

وجه المشعوذ الذي أمامي يخيفني كثيرًا. في كل مرةٍ أنظر إليه أشعر بجسدي الصغير يزداد رعبًا من عينيه الغائرتين والمتشبثتين بجفونٍ سوداء ينتشر فوقهما حاجبان كثيفان ومتصلان. أنفه المعقوف يجذب ناظري أكثر من أي شيء آخر. كنت أرغب بسؤاله: هل كنت تكذب ليصبح أنفك هكذا؟ له وجه دائري يحمل ملامح فوهة فرن طيني قديم. تنسدل من فوق رأسه غترته البيضاء، ومنها تفوح روائح مسك قوية.

كان قد أخبرنا أحدهم قبل أن ندلف للداخل أن علينا الإيجاز:

- قولوا ما عندكم وغادروا. إن وجد لكم حلاً سيتحدث، وإن أعطاكم ظهره فالأجدر أن تسارعوا بالخروج.

لم يتكلم أبدًا، كان يصغي لكل كلمةٍ تقولها أمي بوقار مصطنع، وبين لحظات الصمت أرى إبهامه يقفز بين تقاطيع أصابعه في صلاةٍ أظن أنها لن تقبل! كنت أتشبث بذراع أمي حينما أخبرها أن أحدهم عقد لها عملاً خبيثًا وبدلاً من أن يصيبها قد أصابني.

تحدث أخيرًا، صوته أجش، وأنفاسه – رغم المسافة التي بيننا – كريهة، وكأن غرابًا أسودَ قد تحدث وهو يعلك جيفة.

أما أمي، لم يراودها شكٌ في هذا.

– أكيد حصة أم السحور. من يومها وهي تحسدني وتدبر لي المصائب.

قالتها بنبرة تؤكد كلامه الواهي. ابتسم لسذاجتها، فرأيت أنفه يزداد ميلانًا، أقسم بذلك!

– والحل يا شيخ عوض؟ سألته أمي.

لم يجبها وراح يحدق بي. نظراته تخترقني وأشعر بها تحرقني. مدّ ذراعه صوبي فبكيت كما يليق ببكاء فتاة العاشرة. حاولت أمي أن توقف هذا البكاء، أخبرتني بما قالته لي مسبقًا: لا تخافي، هذا الشيخ عوض، سوف يعالجك مما فيك، ويرد لك عافيتك.

لم يكن كلامها مقنعًا. أعني كيف لشخص لم يسبق له معرفتي أن يهبني ما أفقد؟ تعتقد أمي أن الحل يكمن في صلة العبد بربه، وأنك حينما لا تملك علاقة جيدة كهذه فيسعك الالتجاء لإنسيٍّ آخر كان قد بنى جسرًا ثابتًا بين أطراف هذه العلاقة. تبرر اعتقادها

بمشروعية الاستعانة بالصالحين في رقية المريض. حسنًا، من هم الصالحون؟ كيف نعرفهم؟ الأمر أكبر من لحية كثة ومسك يباع في السوق القديم.

اختبأت خلف عباءة أمي وصمت كما أجيد الصمت دائمًا.

- لا بأس.

نطق لينهي هذا المشهد الذي بدأ يصبح مملاً إزاء تكراره في ذاكرته.

ثم أردف: أنتِ تعلمين يا أختي أن فكّ السحر لا يتم في يوم وليلة، الأمر أكبر من قدراتنا البشرية، ولنا أن نستعين بمخلوقات الله ما دام الغرض طيبًا في أصله. لا أحتاج منكِ أن تذبحي ديكًا أعرجَ ولا أن تحضري لي أثرًا من أحد. سأتكفل بما يتطلبه الحل. وعليك التكاليف.

- أبشر يا شيخ.

بحركة خاطفة مدّت له ظرفًا أبيَض بدا وكأنه قد حُمّل ما فوق طاقته الاستيعابية. فتحه ومرر أصابعه الطويلة على الورقات النقدية، أحسست بأن يده قد استحالت لآلة "أبانا" كتلك التي

أخبرت أبي أني أريد شراءها حينما أكبر، لأنني سأصبح امرأة غنية بلا شك.

كان يبتسم عندما وضع الظرف في جيبه الأيمن، لا يمكنني الجزم بشأن ابتسامته فالإنارة هنا خافتة، لا تسمح لملامح كثيرة بالظهور، إلا تلك التي كانت شاذة عن الطبيعة، أنفه المعقوف مثلاً!

شددت عباءة أمي أحثها على إنهاء هذا اللقاء. "صبري يا بنت" قالت لي بنبرة زاجرة. عدت لأختبئ وراءها، وأعاود عادتي القديمة باستراق النظر من فوق كتفها الأيسر.

- امنحيني أسبوعًا فقط. سأكون هنا بانتظاركم، أنا وعقدة السحر. يمكنك الآن أن تنصرفي.

***

في الطريق إلى المنزل شدَّدت أمي على أن يبقى هذا سرنا المدفون.

- لا أريد أن يعرف أبوك أي شيء عن زيارتنا هذه.

لم أنطق بشيء؛ فأعادت تحذيرها قبل أن ندلف إلى المنزل، وأجبتها هذه المرة برأسٍ يهتز.

أمي، المرأة التي خلقت لتنافس الرجال في شجاعتهم، لا تخاف أبي، ولا يخافها. العلاقة بينهما غريبة ومحيرة، وفي فتورٍ أبديّ. حينما يتحدثان معًا؛ فإن الكلام يكون بلا هدف، إنهما يتحدثان فقط ليخبراني أنهما لازالا يستطيعان التحدث. أشعر بكلماتهما تطيش يمينًا ويسارًا وأن كل ما عليّ، تجنب أن أصاب بأذى منها.

أقصى موقف حميمي رأيته بينهما كان على طاولة العشاء، إذ قالت أمي لأبي، بعدما أفرط بالأكل حتى تكورت وازدادت معدته بروزًا:

- كفاية، كرشك أنتفخ.

رد عليها وهو يعلك ما في فمهِ قائلاً:

- خلينا نربي كرش معًا يا عمري!

ذات مرة قررت أن أقرب بينهما أكثر. ابتعت وردًا أحمرَ وأرفقت معه علبة شوكولاتة وبطاقةً صغيرة كتبت عليها: اشتقت لكِ. خبأتها عن أنظار الجميع، وقبل أن يحين موعد عودة أبي وضعتها داخل غرفتهما. كنت أترقب وقع هذه المفاجأة الصغيرة على قلب أمي. تخيلت سيناريوهات كثيرة، كلها كانت رائعة

وتصلح لأن تكون نهايةً لفيلم رومنسي.

ما لم أتخيله قد حدث!

ففي اليوم التالي وجدت أن كلاً منهما أصبح لديه غرفته الخاصة!

شعرت بألم كما لو أني ارتكبت جريمة بشعة. ذهبت لعمتي وأخبرتها. لكنها ضحكتِ حتى دمعت عيناها! ثم قالت:

- الآن تعلمين لَمَ أنتِ ابنتهما الوحيدة!

من يومها اتخذت أهم قرارات حياتي: لن أتزوج أبدا!

الزواج لا يعطي الحبّ. وأنا أريد حبًّا.

***

مرّ الأسبوع بطيئًا ومملاً. لم أكن أتطلع لشيء فيه، غير أن فضولاً كان يعتريني للعودة لذلك المشعوذ. تمنيت لو أستطيع أخذ كراس رسم معي لأرسمه. أنفه المعقوف سيجعلها أكثر اللوحات بشاعةً في هذا العالم! إن أكثر ما كان يقلق أمي حينها أن يطلب منها مزيدًا من المال. بالكاد استطاعت أن تقنع أبي أنها أقرضته لامرأةٍ محتاجة، وقتها دعا لتلك .. ودعا على هذه!

وفي اليوم المنشود، ذهبنا إليه، وحين وصلنا لم نجد سوى بيتًا قديمًا أكلت النار نوافذه!

خطفت نظرة سريعة ناحية أمي؛ فوجدتها تحمد الله وتتلمس الظرف الذي تحت ذراعها!

*

مطر (1)

لن تأتي.

هكذا ظننت بعدما اخترق ظهري اليابس كصحراءٍ قاحلة نهر عرقٍ يشي بحنق ظهيرة يوم من أيام الصيف الواجمة.

قد كنتُ أنتظرها من الساعة العاشرة، بالرغم أن موعدنا كان الحادية عشر. لم أستطع الانتظار، الوقت لا يمضي كما يجب عندما تقف وحيدًا في حنينٍ منهمر؛ فأطلقت ساقيّ للريح علّي أقطع مسافات الوقت.

الشمس تقيم طقوسها المعتادة، في إرسال أشواقها للأرض عبر قبسٍ من نور قد يحدث ضررًا كبيرًا في رأسٍ فارغ كهذا الذي أحمله.

لكنها لم تأتي بعد.

لقد خربت الظهيرة أناقتي، وهي تحبني أنيقًا. طالما أخبرتني أنها تحب الرجل الأنيق المهندم، أو "الكشخة" كما تصف، وأنني، للأسف، لستُ كذلك.

عبست من قولها. ولكنها أردفت:

- تمندم حتى أتباهى بك بين الفتيات.

ثم اقتربت تزم شفتيها. أردتُ أن أخبرها بأنني لست سلعةً يُتباهى بها، ولكني آثرت الصمت وغرقت في بحر شفاهها راضيًا بأن أكون شيئًا من أشيائها إن كانت هذه هي الجائزة.

خطوطٌ كخطوط العرضِ على خارطة الأرض التي درستها في المدرسة و لم أفهم مغزاها صارت على ثوبي. هل أصبحت أرضًا الآن؟

هكذا إذًا، أنا أرض وأنتظر شمسي، ولكنها لم تأتِ. و لم تشرق بعد.

غترتي استحالت إلى منشفة أجفف بها وجهي المشوي على موقدِ الشمس، وحين شممت رائحةً أعرفها جيدًا ولا أستسيغها، أدركت أن الظهيرة غلبتني، وأنها عندما تصل لن يسرها منظري ولا رائحتي.

اللعنة!

أسندت جذعي على نخلةٍ قريبة، ورحتُ أداعب حبات الرمال الناعمة بأطراف قدميَّ، كعادةٍ أفعلها عندما يطول الانتظار.

لكن، يا الله، حتى قدميَّ اتسختا الآن.

"أحمق أحمق" سمعت صوتًا ينطق بها في داخلي.

فتيات كثيرات عبرنَ بجانبي، إنه الطريق الوحيد المفضي لحيِّنا، حيث تقطن هي أيضًا، لكنها ليست معهن.

تسميه الفتيات "شارع غرام"، ولا توجد فتاة تعبره إلا ويهتز رأسها كغصنٍ يبحث عن عصفورهِ/حبيبها.

لا يقطعنَه إلا في طريق عودهن من مواقف الباصات، القادمة من حرم الجامعة النسائي، حيث ينتشر الشباب على جانبيهِ تعتريهم لهفة النظرة الخاطفة الصامتة التي لم يجدوا سواها طعامًا لقلوبهم جائعة الحنان، ولهذا السبب أقف أنا أيضًا. الغمزة هي أولى طرق التواصل بين الحبيبين، يغمز لها فتطرق رأسها خجلاً وكأنه قد قبلها للتو.

إنها بداية الجوع فقط.

حين يتمرد الجوع تكون كل الطرق شديدة العتمة مساءً، كطاولةٍ لعشاءٍ تختلف أنواعه ولكنه في آخر المآل لا يغني من جوع، لأن تلك المائدة لا أطباق رئيسية فيها، فقط بعض من المقبلات

الخفيفة.

تمامًا كما يحدث بيني وبينها، نلتقي ثم نفترق ونحن أكثر جوعًا لأشياءَ أخرى نتمناها ونمتنع عنها لأسباب جليّةٍ لا نفع من ذكرها!

أما عن مسمى ذلك الطريق لدى الشبان، فله أسماء وألقاب كثيرة أخرى يتشاجر عليها العاشق الصادق والراكض خلف جسدٍ لا قلب!

أظنني كنت أسميه "شارع غرام" كما تفعل هيَ. لا أذكر جيدًا الآن.

في الجهة المقابلة لي يقف حسين "العصل" كما كنا ندعوه في حارتنا؛ لطولهِ الشاهق وجسدهِ النحيل كنخلةٍ تعرت من ليفها. يقف على مسافةٍ ليست ببعيدةٍ ولا قريبة، ولكنها كافية لبعض الخصوصية!

لحسين حبيبةٌ تشابهه في الطول والنَّحَف، زهراء، وهي اسمٌ على مسمى كما أخبرني حسين. عندما يطِل شبحها من رأس الشارع، ترتجف يديه ويتلعثم لسانه. ينسى كل خطاباته الغرامية التي تثير صداعًا مقيتًا في رأسي كلما حكاها لي. يستحيل لجماد

لا حول ولا قوة له. ولذا لم يستطع أن يعترف لها بهذا الحب أبدا. يكفيه مرورها أمامه مكتسيةً عباءتها السوداء. هي أيضًا لا تنبس شفتها بشيء، تراه من بعيد ثم تهرول خجلاً، أو خوفًا! لستُ أدري.

سألته ذات يوم:

- كيف تحبها وأنت لم ترّ محياها قط؟

يبتسم ويطلق عقله في سماء لا حدود لها، قبل أن يجيب:

- لقد رأيتها، مراتٍ عديدة.

- متى ؟ يا النصاب!

يعود لخياله الجميل ويخبرني:

- تزورني كل ليلةِ خميسٍ، في حلمي، تطرق برقةٍ باب غرفتي، أفتح الباب. أندهش من ضياء مقلتيها. أتسمر أمامها كتمثال مذهولٍ من اتساع السماء.

أجاريه في الحديث.

- إيه. وايش بعد؟

- تدلف، بخطواتٍ خائفة، ناحية النافذة وكأنها تبحث عن

شيء في الخارج. يقابلني ظهرها العاري من الأعلى فأتوه في نتوء عظام كتفيها. لا شيء يحول بيني وبينها، ولكنني أتردد قبل أن أقترب. حين يثور شغفي أخطو للأمام بينما يرتعش جسدي كعليلٍ يمني النفس بقبلةِ شفاء. أهمس لها: زهراء .... أحبّكِ. لا ترد. تدير رأسها ببطء فتلمع دمعة لها لون القمر في خدها. "سأفتقدك" تقول لي.

أحاول الاقتراب منها فيستحيلُ جسدهُا إلى بخار أبيض يتسرب وينفذ خارجًا من النافذة. أبقى وحدي في الحلم حزينًا ورأسي مملوء بالأسئلة.

تتغير ملامحه الباسمة، أشعر بالضيق يطوق عنقه ويخنقه.

- حسين .. زهراء حلوة؟

أحاول إعادته للجزء الجميل مَن حلمه بسؤالي. نجحت محاولتي وعادت إليه ابتسامته.

- حيل. حيل حلوة!

***

ولكننا الآن ننتظر في مفرق طريقٍ ترابي، تحت ظهيرةٍ تجف

لها الملابس المبتلة في دقائقَ معدودة.

يشير لي حسين من الجهة المقابلة، إشارةً تشابه إشارة تائه في صحراء يابسة يتراءى أمامه سراب واحةٍ خضراء. منظر يديه المرتعشتين كان كافيًا أن يخبرني بأنه شاهد ظلال زهرة تسبح على التراب. كيف أدرك أنها هي، لا فتاةً أخرى؟!

لقد رأى بقلبه لا بعينيه.

كانت تسير على مهل، تداعب عباءتها نسمة ريح، فاضطرب قلب حسين أكثر. أمعنت النظر في ظلالها حتى جزمت بأنها هي من خطواتها المترددة بين العدو والوقوف. أدرت نظري ناحية حسين ساخرًا من اضطرابه وتعرقه، فقابلتني نظرته الحانقة من تحديقي بزهرته.

المسكين يغار!

عبرت زهراء أمامنا، تمنيتُ أن يتجاسر حسين ويلقي بجسده أمامها، أن يعترف بكل هذا الحب الذي في قلبه دفعةً واحدةً كاملةً لا أجزاء ولا تأنٍّ بها. ولكن لا شيء من ذلك حدث. عبرت زهراء وسلكت المنحنى الأيسر للطريق المتفرع في آخره، حيث تقطن

بيوتهم، وبيوتنا على المنحنى الآخر.

نعم! لهم طريق ومنحنى. ولنا آخرَين. أن نعيش في ذات الحارة لا يعني أن نتجاور ونتفق. الطائفة كانت أعظم من أن تجمع المختلفين في طريقٍ واحد يتسع للجميع. الطائفة فرقتنا، ولازالت تفعل ذلك بنا.

***

– لن تأتي، لنذهب.

قال لي حسين بعدما انتشت عيناه بما جاء من أجله.

– لا أعلم يا حسين .. تأخرت كثيرًا، لكنها لا تخلف موعدًا.

– هيّا، أبو مرزوق سيقطع آذاننا إن لم نعد الآن.

– دعنا ننتظر. قليلاً فقط.

– فلنذهب. غدًا تراها.

قبض على كفي وسحبني معه. حاولت ثنيه، ولكنه أحكم قبضته.

قبل أن يبتلعنا المنحنى الأيمن في نهاية الطريق، أثارت سمعي

حنحنةٌ أعرفها. أدرت جسدي للخلف؛ فبان لي ظلها. كانت بعيدةً جدًا. فأدركت حينها أنيٌ وحسين نستدل بقلوبنا.

- أين كنتِ؟ طال انتظاري.

- ....

- لقد تأخرتِ كثيرًا.

- أعلم.

- ....

في كل لقاء يتطلب الأمر دقائق حتى يبدأ أحدنا الحديث، كنا في خجلٍ مستمر، نخاف أن تبدأ لقاءاتنا بشكل خاطئ. كنت قد قرأت قصةً كان بطلها عجولاً في كل شيء، لا يتمهل ولا يتريث حين يتعلق الأمر بتلك التي يحبها. اعترف بحبّهِ في أول موعد، وفي موعده الثاني اغتصب قبلةً من شفتيها، وحين حلّ ثالث المواعيد كان وحيدًا تحت ظل الحائط. ولذا لا يمكنني أن أجازف، سأصمت وأدع القدر يقوم بما كتب فيه. لكننا تخطينا مواعيدنا الأولى بلقاءاتٍ كثيرة! أعترفنا بالحبّ ولانزال حخولين منه كما لو أنه

خطئية ندرك عواقبها ... سأصمت!

إن كل ما يمكنني فعله الآن هو استراق النظر لكفها. قد يبدو فعلاً غريبًا بعض الشيء، لكنها تلك الشامة الحمراء التي تعبث بمساحات البياض على كفها. أعرفها وأحبّها بها. ولو أن لي في الشعر طريقًا لكتبت قصائد في كفها.

كسرت حاجز الصمت هذا بسؤالها:

- هل أتيت بما طلبته منك؟ و لِمَ أنت مكركبٌ هكذا؟

تجاهلت سؤالها الثاني، وأخرجت ظرفًا بني اللون من جيبي ومددته إليها.

- كافكا؟

- بشحمه ولحمه.

شعرت بها تبتسم رغم أن لا جزء من وجهها كان ظاهرًا. شعور ناتج من ارتباط أرواحٍ بخيطٍ خفي لا يُرى. ولكن وجوده حقيقة. تمامًا كما تفزع أمٌ من نومها مرددةً اسم أحد أبنائها. ابنها الذي في ذات اللحظة، يحتضر في ساحة معركةٍ بعيدة. هكذا أظنه.

- هيّا اذهب قبل أن ننفضح في وضح النهار.

- حبيبة المصلحة.

استفزني حديثها، كنت بانتظار عبارةٍ أجمل مما كان. فجاءت عبارتي كانتقامٍ مؤقت.

- آسفة، وأحبك. خذ ما تشاء من الكلمتين واعفُ. أو خذهما كلتيهما ثم اعف وأحبّني، لكني أرجوك أن تذهب الآن. أخشى أن تصطادنا عين متربصة.

أذابت كل ما في صدري من انتظارٍ حين قالتها، فغدوت كالمسحور من كلماتها. أبتسم كالأبله وأنا ألوح لها بالوداع. انتظرتها طويلاً في نهارٍ غاضبٍ؛ لأجل كلمة!

إنها الكلمة الأكثر طغيانًا في العالم بأسرهِ.. الأكثر تأثيرًا.. الأكثر جنونًا. الكلمة التي تجعل السماء متوازنة، والأرض مضطربة. ولذلك، سأقضي عمري كله في انتظارها.

*

سين(2)

نخلق لغاية ما، ونمضي في هذه الحياة بحثًا عنها. يبدو الطريق صعبًا وطويلاً بلا نهاية، وندرك متأخرًا، عندما يحين موعد الرحيل، أن تلك الغاية كانت أبسط من أن نفهمها.

ماذا عمّن خُلق بسبعة أرواح؟

في كل روح تتراءى له غايته، يعرفها ولا يقدر أن يناها.

وغايتي أن أكتب.

أن أدون حكايات هذا العالم الشاسع وأجعل من كتاب عالَماً ساحرًا بذاته. الكلمة ذاتها تعويذة سحرية، وامرأة تجيد غربلة الكلمات، هي مشعوذة سيئة الحظ.

استفذت خمسة أرواح حتى الآن. أعيش السادسة ولا أدري متى يحين موعد رحيلها. لا بأس، ستأتي أخرى سابعة! إن أجمل ما يمكنني فعله هو الانتظار؛ لأنه الوحيد القادر على أن يعلمنا معنى أن يكون للوقت لذّة. انتظاري لكل موتةٍ أشبه بمن يستلقي على سكةٍ حديدية وفي أذنيه صفير قطارٍ قادم. أدركت أني لن أعيش

طويلاً، ورضيت بقدري وانتظرت القطار ليعبر فوقي.

***

- كيف يكون اللون الأزرق يا عمتي؟
- أزرق كالبحر.
- هل ذهبتِ للبحر؟
- لا.
- ....
- لا يتوجب أن أذهب أو أن أرى الأشياء لأعرف لونها. يمكنني معرفتها من رائحتها، صوتها، وملمسها. ومن حديثٍ عابر يرسم صورةً أبدية للشيء في عينيّ.
- والحبّ؟ كيف لونه؟ رائحته؟ ملمسه؟

بدا أن سؤالي جاء مربكًا لها وكأنه لغم وضع في أرضٍ زراعية. سكتت لبرهة ثم أجابت:

- الحبّ يا ابنتي، ليلة شتاءٍ باردة وغطاء دافئ. مشوار حياة لا ينتهي، وذراعٌ تتشبث بكِ! ضحكة ساذجة لا تليق بكِ لكن أحدهم يشعر بها فاتنة. كتابٌ صفحاته بالية

إلا أن حكايته لاتزال آسرة. الحبّ غياب مفاجئ وقلب ينتظر. مجنونة تتسلق ظهر عاشقٍ لتلمس القمر البعيد.

- هل أحببتِ من ذي قبل يا عمة؟

لم تتأنَّ وهي تجيب:

- أوه! مرات كثيرة!

- من؟

- لا أحتاج رجلاً لأحبّ، إنما إحساس صادق لا ينفد، تمامًا كما أشعر كلما شممتُ زهرة فلٍّ نبت وحيدةً على رصيفٍ مهمل!

حينما تتحدث عمتي أشعر بأنني أستمع لكتابٍ صوتي. لا تتردد في الزج بعباراتها، تتدفق الكلمات من ثغرها وكأنها خاضت هذا الحديث مرارًا وتكرارًا، أو أن وحيًا أدبيًا نزل عليها. تغلق عينيها، وهي لا تفعل ذلك عادةً، وكأنها تشاهد مجموعة كلمات مبعثرة تنتقي منها بعناية وتصفها ليخرج حديثها مدهشًا وعميقًا. وحين تصف شيئًا تحرك يديها وكأنه أمامها.

أسترق النظر إليها حينما تختلي بنفسها في غرفتها، لا تتعثر

بشيء، ولا تخطئ شيئًا تمد يدها إليه، وكأن خارطةً رقميةً رسمت في عقلها وبرمجت قدميها عليها. تدلف أحيانًا إلى رفٍ صغير صُفَّت فوقه كتبٌ قليلة. تمسح بسبابتها فوقها ثم تلقط كتابًا من بينها. تضمهُ إلى صدرها وتعود لتضطجع على سريرها. تفتحه من المنتصف وكأنها تعلم أي صفحةٍ تريد أن تقرأها. العجيب أنها لا تنتهي من قراءة هذه الصفحة!

حينها شككت بأن كل ما تفعله ما هو إلا تمثيلية في مسرحيةٍ خالدة. وأن حان الوقت لـــ "شارلوك هولمز" الذي يتلبسني من حينٍ إلى آخر للظهور.

كان كل ما عليّ فعله هو الانتظار والترصد. وحين جاء الوقت المناسب، إذ كانت في زيارة خارج المنزل، تسللت إلى غرفتها، أحسست بأن كل شيء فيها ينظر إليّ بعينين متسعتين. حتى المرآة كانت تحدق بي. مرقتُ نحو رف الكتب، ولم أستطع استذكار أي كتابٍ كانت تقرأه تلك الليلة. بدأت أقلب كل كتابٍ على حدة. الأول، الثاني، السابع .. لا شيء. أردت التراجع، المرآة تحدق بي! لكنه الفضول الأبدي لن ينفك يقحمني

في أمورٍ لا شأن لي بها. أكملت: الثامن، التاسع، هذا هو! التاسع. لا يمكن أن يكون غيره، هذه الصورة التي تنام بين طياته لم توضع هنا عبثا. بحركةٍ خاطفة، أخرجت هاتفي النقال وأخذت صورةً سريعة لهذا الأسمر الذي يتوسط كتاب عمتي... وربُما قلبها!

وضعت الكتاب مكانه، وقبل أن أخرج، التفت إلى المرآة وقلت لها: أوووش!

لزمت غرفتي حتى عادت عمتي للمنزل. وحين سمعت صوت صفير باب غرفتها الخشبي، والمتاخمة لغرفتي، قفزت من مكاني وفتحت بابي برويةٍ لئلا أشد انتباهها. كانت واقفةً، كجمادٍ لم يخلق ليتحرك، أمام مرآتها، مشهدها أكثر رعبًا من أي فيلم مصاصي دماء. وحين استدارت صوب الباب وكأن عينيها تنظر إليّ مباشرةً هلعت وأغلقت بابي محدثةً ضجيجًا فاضحًا.

الملعونة .. المرآة!

***

أخبرني أبي ذات مرة أنها لم تخلق عمياء.

- كانت تبصر كأي إنسي، حتى حدث أمرٌ غريبٌ لها.

أصبحت تخرج كل ظهيرةٍ إلى سطح منزلنا القديم، تحدق بالشمس وتسألها: أين المطر؟ أريد مطر!

وكلما حاولت ثنيها عن فعلها، زجرني أبي قائلاً: "خليها بنت الكلب".

أصبحت هذه هي عادتها، حتى أكلت الشمس عينيها وتركتها في العتمة وحيدة.

ثم صمت قبل أن ينتهي حديثه:

- اتركيها؛ فقد جُنّت.

*

مطر(2)

في دكان أبي مرزوق تكون الظهيرة أقل فتكًا، والفضل يعود للمكيف الصحراوي الواقف بمدخل الدكان، كرجلٍ يحمل في قلبه رحمةً تسع الجميع. لم يبتعْه أبو مرزوق رأفةً بحالنا، بل للتقليل من الخضار الفاسدة التي يقتلها فيض النهار.

لأبي مرزوق مزاجٌ حاد، يثور فجأة بلا سبب. عيناه غاضبتان كفوهةِ بركان، يميل لونه إلى الحنطة. حين يقف بجانبي لا يكاد رأسه يطول كتفي، طول ساقيه المفقود، وجده في يديه الطويلتين. تنتابني رغبة عارمة بكسر عظامها إلى قطع عديدة حين يعصر أذني كقطعة ليمون في حال تأخري. في خده الأيمن خدوش متفرقة الطول. سألته مرةً من أين جاءت هذه الخدوش؟ أجابني بأن ذئبًا هاجمه في صغره، حين كان راعيًا للغنم، وأنه تمكن منه وأرداه قتيلاً. حين أخبرت حسين بقصته، قال لي : "الذئب ظنه خروفًا من صغر حجمه، ومن جسده الذي يجتاحه الشعر في كل مكان كما لو أنه ثمرة كيوي!"

تلاشت كذبته فيما بعد، حيث نبح كلب على غفلةٍ منه فالتصق ظهره بالحائط خوفًا.

رغم أنه "أبو مرزوق"، إلا أن لا أبناء له. لديه ابنةٌ وحيدة، مرزوقة. توفيت زوجته حينما أعلنت مرزوقة وجودها الحقيقي في هذا العالم بصرخةٍ أولى. توفيت أم مرزوقة قبل أن تنال أجمل أمانيها/ احتضان ابنتها وتقبيلها.

أمضى حياته في سبيل غرضٍ واحد، سعادة مرزوقة، مهما كلف الأمر. تنقل بابنته بين مدنٍ عديدة، من الحجاز إلى الساحل الشرقي، حتى رق قلبه لنخيل الأحساء وعيونها المتناثرة كلآلئ في باطن البحر؛ فاستقر فيها.

استأجر بيتًا صغيرًا في الصالحية، مكون من غرفتي نوم صغيرتين، مطبخ جانبي وحوش مربع المساحة تهب عليه رياح الشمال ويقف البدر في منتصفه حين يكتمل نوره.

وكَّلَ مهمة الاعتناء بمرزوقة لجارته الأرملة "حصة" مقابل أن يقدم لها خدمات مختلفة عندما لا تجد رجلاً يساندها، فاعتنت الخالة حصة بمرزوقة وجعلتها ابنةً ثالثة لها. ألمحت له بأنها ومرزوقة

على وفاقٍ تام، وأنها أرملة، وأنه أيم. ففهم تلميحها ولكنه استغبى وتمنى لها زوجًا صالحًا.

هذا القصير، سيء اللسان، لم يتبرّم يومًا من عناده على أن الوفاء لا تنتهي صلاحيته برحيلٍ أو موت. فظل أيّمًا لما تبقى من حياته، وفيًا لذكرى زوجته.

– أقولك يا مطر، سوي لي براد شاي وهاتو هنا. بسرعة.

هكذا يبدأ سيل طلباته في الصباح. للشاي في جسده تأثير كحقنة الهروين. يجلس القرفصاء في باطن الدكان مقابلاً مروحته الواقفة ويرتشف "استكانته" على مهل.

– شوف الطماطم الذبلان خليه تحت يا أهبل يا حسين. ما تفهم أنت؟ كم مره أقولك التفاح خليه بوجه الدكان، أصل الناس بتحبّ التفاح. يا مطر، مطروك بنار جهنم، خد دي الطلبية لبيت أبو محسن ولا تتأخر

حملت أكياسًا من البصل والطماطم وبعض الفواكه المتنوعة واتجهت ناحية بيت أبي محسن العطار. في الطريق قابلني عبدالحكيم،

أو حكيم كما ندعوه، وكان حكيمنا الذي نلجأ له من أجل نصيحة أخوية، لا مبالين بأنه يصغرنا بعامٍ على الأقل.

تبادلنا التحية، ثم سألته عن حاله فأجاب:

- أنا سأكون بخير إن لحقت بمحاضرتي.

- كان الله في عونك.

صاحبته في طريقه إلى الطريق العام، الذي يفضي إلى "زرنوق" يقبع فيه بيت العطار، وحيث تقف سيارات الأجرة الصفراء خلفه مباشرةً.

- إلى الآن تعمل لدى أبي مرزوق؟

هززت الأكياس التي أحملها كإجابة مختصرة لسؤاله.

- لَم لا تبحث عن عملٍ أفضل، أو ربما تكمل دراستك؟

- أكمل دراستي؟ في الأحلام. في الأحلام!

- الأحلام ليست مستحيلة. هناك صفوف ليلية يمكنك الانضمام لها، اعمل نهارًا وادرس ليلاً.

- للأسف.. إني بشر يا صاحبي، إن عملت نهارًا لن أقوى على دروسٍ وصفوفٍ في الليل. ما بها المتوسطة؟ يكفي

أن أقرأ وأكتب.

- نعم كافية! للعمل كخضّار!

أحسست بنوع من الإهانة فآثرت الصمت. فهم استيائي وودعني قائلاً: الله يعين.

أكملت طريقي لما جئتُ من أجله، فكرة وحيدة كانت تؤرقني: هل كانت ستقبل بي؟ أعني كشريكٍ دائمٍ في هذه الحياة، أم أنّ هذه العاطفة لم تكن إلا قصةً أخرى كالتي تتمنى أن تعيشها؟

لا، إنها تحبني! وهذا أمر أدركه كلما بحّ صوتها كحمامةٍ تغني على غصن شجرة تينٍ في وادٍ فسيح حينما تشرع أبواب قلبها فينهمر حديث الحب كنهرٍ جارٍ على سفح الجبلِ. كتبت لي رسائل عديدة. "أحبك" فاتحتها وخاتمتها. فلم أكترث لما بين سطورها. هي تحبني، والحب وحده يكفي مثلما اكتفت عبلة بعنترها، وليد العبدة زبيبة.

الحب لا يعرف لونًا ولا عِرقًا ولا رائحةً ولا يفرق بين طبيبٍ وخضّار! ولذا فالحب هو الطريق الأقصر والقمة الأعلى لترفرف فوقها الإنسانية التي نتغنى بها دون أن نُفعِّلها في حياتنا.

سألتها مرةً: "لَمَ تحبيني؟". لم تنبس ببنت شفة، وتركتني وحيدًا أحاول إحصاء أو خلق أسبابٍ مقنعة. ربما لأنني وسيمٌ، قلت لنفسي وأنا أستذكر كلمات أمي المتغزلة بوسامتي. وحينما أمعنت النظر في مرآتي، رأيت وسامتي تمتثل فقط في مثلٍ قديم: "القرد في عين أمه غزال"!

جلدٌ أسمر يكسوه شعرٌ نما في اتجاهاتٍ مبعثرة فوق الذقن، عينان كبيرتان جاحظتان، رأسٌ يعلوه شعرٌ مموجٌ ويثبته عنقٌ كجذع شجرةٍ على رأس الجبل. أنفٌ طويلٌ ممشوقٌ ينتصرُ لوسامتي. ساقان طويلتان تنتهيان بمؤخرةٍ سمينة، ثغرٌ صغيرٌ بشفتين لونتها السجائر بالأسود، وجسدٌ متوسط البنية ترافقه عضلتين بارزتين في ذراعيَّ جراء حمل السلال الثقيلة في دكان أبي مرزوق.

هذه هي وسامتي إذًا! ولا تبدو لي سببًا مقنعًا لتحبني.

أمعنتُ التفكير آنذاك ولم أتمكن من خلق أسباب كافية حتى التقيت بها مرةً أخرى، في شارع غرام. أعطتني وقتها ورقةً طويت على شكل مربعٍ صغير وقالت وهي تدسها بخفةٍ في جيبي:

- هنا، في هذه الورقة، أسباب حبّي لك.

في آخر الدكان، انزويت وحيدًا بالقرب من سلال البصل.

وقرأتها.

(تسألني لَمَ أحبك! وأتوه في استذكار الأسباب. ولكنني أكتفي اليوم بجواب عاشقةٍ أخرى[1] كانت قد اختصرت عليّ الأمر وكتبت خلاصك :

أعطاني الأول عقدًا من اللّؤلؤ يعدل مدينة بأسرها: معابدها، وعبيدها، وقصورها.

ونظم الثاني من أجلي ديوانًا من الشعر قال فيه: إنّ شَعري أشدُّ سوادًا من الليل، وأنّ عينيَّ أصفى من زرقة السماء...

أمّا أنت، يامن أحبك، فلم تعطني شيئًا، ولم تقل لي شيئًا، ولست جميلاً، ولكن أنت الذي أحبك.

هل تعرف الآن لَمَ أحبك؟)

كان جسدي بخفة ريشة حينها. حلقتُ للأفق الأبعد.

- أشبو صاحبك الأهبل يتبسّم؟!

---

[1] جورج ساند: روائية فرنسية

سأل أبو مرزوق حسين.

- الحبّ يا أبو مرزوق. الحبّ!!

أجابه حسين.

لكنها مختلفة. ليست كالنساء، وليست كالحور. هي بذرةٌ تتلقفها أرض النساء الندية وسماء الحور البهية. إن ابتسمت كانت أقرب لغيمةٍ بيضاء، وإن استاءت تصير كقطةٍ ضائعةٍ على الرصيف في يومٍ ماطر، تنتظر ذراعيَّ لتتنهد الارتياح. لها طلةٌ كغرةِ الهلال، ولعينيها سوادُ ليلٍ ونافذةٌ أرى من خلالها الأشياء بحبّ.

- يا ولد!

جاء صوت أبي محسن ليخرجني من هذا السرحان، هززت رأسي لأمحو صورها التي نقلتني لعالم آخر لا يراه غيري. ابتسمت وناولته الأكياس. وقبل أن أبتعد أكثر، سمعته يقول: الله يعينك!

سين (3)

تلقيت هذا الصباح بريدًا إلكترونيًا من رئيسة التحرير تطلب تكملةً أو جزءًا جديدًا للقصة الأخيرة التي نشرتها. رددت عليها أنها انتهت و لم يبقَ منها شيء، وما هي إلا سويعات حتى أرسلت لي بأنها واثقة أن مخيلتي لن تجد عائقًا في خلق أحداثٍ جديدة. يظن كثير من القراء أن الكاتب آلة أفكار ولادة، ويمكنه الكتابة عما يشاء، وقتما يشاء، إلا أن هذا الاعتقاد خاطئ في غالبه! الفكرة وحدها تتطلب دهرًا من المعاناة والصراع الروحي، السقوط من هاوية، والسباحة في عمقٍ سحيق، التأرجح فوق نارٍ كاوية والتقلب على أرضٍ فضائيةٍ لا قوى جاذبية تطوقها، لا يمكن لفكرةٍ جيدة أن تخرج بسهولة، إنها أشبه بنطفةٍ في عقلٍ خصب، تحتاج للصبر على أن لا تيأس منها سريعًا، ولغذاء من قراءةٍ وتمعن حتى تشعر بقدميها تركل رأسك، إلا أنك، أيها الكاتب، تصبر عليها ولا تنفك تحملها وتتحامل كل ركلةٍ مباغتة، لأنك ببساطة تريدها مكتملةً، نديةً، وعظيمة!

لطالما وصلتني العديد من الرسائل على صفحتي الإلكترونية على موقع فيسبوك، تلك التي أسميتها "امرأة بلا قدر"، إنه لقبي الذي أختبئ خلفه في مجتمع بات يجرم الحرف ويقذف كل فتاة تختلي بهِ ـتشعل نارها معه. غالبية الرسائل تطلب مني كتابة قصة مرسلها، إنهم ببساطة يمنحوني الحق في تلبسهم والكتابة بالنيابة عنهم، لكنني أملك قناعتي بأن الكاتب الذي يتسلق على قصص غيره ما هو إلا قاتل مأجور!

إن أردت أن تقتل شيئًا فافعله بيديك، لا تفوت نبضة القلب تلك، والدهشة!

أرسلتُ أولى حكاياتي في يوم ميلادي العشرين، قد اخترتهُ تحديدًا ليكون بداية جديدة لشيء أحبّه وأجهله. وما أكتب عنه لا يتعدى عن كونه خيانات زوجية وحكايات نساءٍ معذبات. إنهم يحبونها، أعني تلك الحكايات التي فيها أجسادٌ كثيرة وإثمٌ مُروع! لأنها ببساطة موجودة، الجميع يعرفها، ولكنهم، كما جبلوا عليه طيلة أعمارهم الفانية، ينكرونها!

وصتني الموافقة على النشر بعد أسبوعٍ طويل، لم أفرح كثيرًا،

خوفٌ باطني كان يعصرني، فكرت طويلاً بالتراجع، الانسحاب يخفف من وطأة الندم، ثم خطرت ببالي فكرة قناع "امرأة بلا قدر"، وأقنعت نفسي بأن الاختباء أفضل الحلول الممكنة.

أذكر زياراتي المتكررة للبائع في البقالة المجاورة لبيتنا، قد اعتاد عليّ أجيء وأبتاع منه هذه المجلة النسائية كل شهر فور صدورها، لكن هذا البحث اليومي في "الستاند" الخاص بالمجلات أثار شكه، فأصبح يفتش في بطونها على أمل أن يكشف فضيحتي، كرسالةٍ مخبأة!

صدرت أخيرًا، وكم كنتُ سعيدة بعمودي القصصي الشامخ على جانب الورقة الأيسر! لم أستطع أن أشارك أحدًا سعادتي تلك، خبأتها كسرٍ أزلي، ولم أنفك أحافظ عليه، يكفيني أنه السر الوحيد الذي أعرف صاحبه ويخفى عن الجميع، أليس هذا رائعًا؟!

كتبتُ قصة ثانية، وثالثة، وظللت على هذا المنوال، في أحيانٍ قليلة حاولت التنويع والخروج عن هذه الدائرة التي أحوم حولها، كتبت عن مرضي، عن المشعوذ، بالرغم أن سنين عديدة مرت على ذلك اللقاء، لكني لم أنسَ يومًا كيف أرعبني أنفه! كتبت لهم عن

حيواتي السبعة، عن كل موتة، ولكن لم يعر أحدًا اهتمامه لهذا، الخيانات تسيِّلُ لعابهم!

جمعت أعمدتي القصصية في ملفٍ واحد وخبأتها تحت سريري، إنها كنزي الوحيد في هذه الحياة، والأسرة صناديق الأسرار الدائمة.

***

أغلقت حاسبي المحمول وقلت لنفسي: قهوة مرّة كفيلة بأن تحسن مزاجي المتعكر هذا الصباح. قلبتُ رأسي بحثًا عما تطلبه مني رئيسة التحرير، لا شيء هناك، سأعتذر لها مجددًا، وإن كلفني هذا مساحتي في المجلة.

لم يكن هناك أثر للحياة في المنزل عندما دلفت إلى المطبخ، منزلنا صامت كضفةٍ يابسة. أعددت كوب القهوة وقبل أن أهمّ بالذهاب إلى غرفتي قابلتني عمتي. كان وجهها باردًا، بلا ملامح، ابتسامتها لم تكن في محلها، شعرها الحريري، الذي كنتُ أغبطها دائمًا عليه، كان مبعثرًا كما لو أن أحدهم تقلب عليه، يبدو لي أنها لم تنم منذ البارحة.

- هل دخلتِ غرفتي؟

سألتني وهي تنظر إليّ مباشرةً! إنها تراني! اقتربت منها لأتأكد، تظاهرت بأنني سأصفعها! لم ترمش! حمدًا لله لازالت لا ترى!

- لا!

- لكن أحدهم دخل غرفتي، أعلم أنه أنتِ، لا داعي للكذب.

- لا! لم أدخلها.

تركتها وحيدةً وأنا أرتشف قهوتي، اعترافي لن يأتي بنتيجة لصالحي؛ ولذا النكران هو أفضل الحلول!

تبعتني، في كل خطوة، حتى صعدت الدرج ووصلت لغرفتي، إنها جازمة في هذا، تريد اعترافًا. لن أعترف! دخلت الغرفة، ووقفت هي تستند الباب. لن أهتم، قلت لنفسي. وضعت كوبي على الطاولة الجانبية للأريكة الرمادية، رميت ثقلي فوقها، وقبل أن أعدل جلستي المصبوغة باللامبالاة جاء صوتها مباغتًا يثير فضولاً لا ينضب في داخلي:

- هل تريدين معرفة من كان في تلك الصورة؟

زممتُ شفتيّ تعجبًا!

*

مطر (3)

يأتي صوت آذان المغرب من مئذنة مسجدٍ يقع في الباحة الخلفية لسوق القيصرية؛ فيهرول أبو مرزوق ناحية المسجد تاركنا، أنا وحسين، خلفه نلملم سلال الخضار ونغلق أبواب دكانه الخشبية، وهذا يأخذ منا وقتًا طويلاً في الكثير من الأحيان فلا نقدر على اللحاق به. ولا يأبه هو إن أدركنا صلاة الجماعة أو فاتنا وقتها.

اعترضت على هذا الأمر كثيرًا لأسباب عديدة دون جدوى. لست متأكدًا من كون أسبابي متعددةً فعلاً!

ولكن ما يهمني هو أن أكون في المسجد. في الصف الأول. خلف الإمام مباشرةً! ليس تدينًا -أستغفر الله! - ولكن لأن إمامنا له ابنةٌ تأسر قلبي، اسمها مها.

(الشاب الذي يجاورك في الصف الأول هو الأحق بمصاهرتك) .هكذا جرت عادات الزواج في حارتنا. ولذا فمن الجليَّ أن لا حق لي بابنة الإمام الذي لا يرى وجهي إلا فيما ندر،

والفضل يعود للمقيت أبي مرزوق.

- قفل الدكان وبعدين صلي مع صاحبك.

يقول أبو مرزوق.

***

يمكنني ببساطة أن أدل أي شخصٍ لبيتنا.

حين تتجاوز التقاطع الثاني، ادخل "الزرنوق" الأيمن بعد الهضبة الرملية. ثم اتبع صدى صوت طلال. طلال يغني دائمًا في منزلنا.

يظن البعض أنني أمازحهم في بادئ الأمر، ثم يتيقنون من جديتي حينما تأسرهم تلك الحنجرة الذهبية التي تنساب بين ممرات الحارة مضيفةً لمنزلنا علامةً فارقة!

ويمكنني أن أقول بأن لطلال في قلب أمي، عائشة، الكثير من الحب. حبٌّ شيده تخاطرٌ في المشاعر.

- طلال يغني ما في قلبي. أشعر بصوتهِ وكأنه يحاكيني، يخبرني أنه يغني لي، ومن أجلي.

تقول أمي.

تستقبلني بصوتها الحنون الذي يشبه عزف ناي صنع منذ خلقت هذه الحياة، حين أدلف للبيت مع انتهاء شفق السماء الأحمر، تردد آهات طلال مداح، وكأنها كورال في فرقته. لا تمل من تكرار أغانيه، ولا يملُ هو من الغناء لها، حتى لو كان صوته يأتي من مسجلةٍ جامدة في زوايا غرفة المعيشة.

ألثم يدها اليمنى، وتقبل خدي بحنية.

- كيف كان يومك؟

تسأل.

- اليوم الذي أقضيه مع أبي مرزوق تعرفين جيدًا كيف يكون.

- تصبّر. إلى أن يفرجها الله.

- إنما للصبر حدود .. يا حبيبي.

أجيبها بأغنية أم كلثوم، المرأة المفضلة لديها بعد طلال.

تتبسم وتشاركني الغناء.

- صبرني الحبّ كتير .. وداريت في القلب كتير.

- اللهْ يا أم صالح، حظ أم كلثوم كان طيبًا حين لم تنافسيها بصوتكِ الشجي.

يتورد خدَّاها كفتاةٍ يافعة، وتضحك.

- يمّه من لسانك يالعيار.

بروحها المرحة تجعل من حياتي مكانًا أسمى، وتضيف نكهة السعادة في روحي حينما أراها تغني وتضحك وتداعب الحياة بقلبٍ صابرٍ مبتسمٍ رغم ما يلقاه منها.

لا أحد يتجرأ على إيقاف صوت طلال، سوى صالح. الابن المتدين. فارع الطول كعمود إنارة. سمين الجسد ككيس طيحن. له لحيةٌ متوسطة الطول، يشذبها دائمًا بمشطٍ صغير يحمله معه في جيبه أينما ذهب، تنمو من وجهٍ امتزجت فيه السمرة والبياض فجاء أقرب للونِ التراب الجاف. عيناه واسعتان لا تترك صغيرةً ولا كبيرة دون تحريمها. ثيابه القصيرة لا تتجاوز الربع الأخير من ساقه، ويلوك أسنانه بمسواكٍ يصاحب المشط الصغير في جيبه.

كلما أفضاه الباب لباطن البيت التجأ إلى الحوقلة ليبدي تضجره مما يسمع؛ فتهرول أمي لتغلق مسجلتها وتمنح مداح غفوة

بعد يومٍ غنائي شاق. تكنُّ أمي لصالح احتراما مبالغًا فيه، احترامًا يرفعه من منزلة الابن إلى منزلة الواعظ المتصيد للأخطاء فيبوح بما في سريرته دون خجلٍ من أمٍ أنجبته وعلمته حتى اشتد ضلعه، ولسانه! لا يكاد ينتهي يوم دون نقاش دينيٍّ طويل عن حرمة التلفاز ومفاسده، والغناء وغوايته بالرغم من أنه لم يعد يشاركنا هذا المنزل بعدما انتقل وزوجته فاطمة لشقةٍ بالقرب من مسجد الحارة، لكنه دأب على زياراته اليومية الخاطفة، التي أصبحنا، أنا وليلى، وأمي أحيانًا، نضجر منها.

ذات مرة اشتد سخطه حينما دلف للبيت على غفلةٍ من ليلى المضطجعة على بطنها تشاهد فيلمًا مصريًا لسعاد حسني. لم تعجبه هيئتها، لا أعلم ماذا خيّل له! ركل خصرها بقوةٍ فراحت تتلوى من الألم، ثم صبّ جام غضبهِ على التلفاز المسكين الذي لازال في عداد الضيوف الذين لم يكملوا أيامهم الثلاثة في بيتنا. هشمت شاشته الملونة، التي كانت من أحدث الموديلات في الأسواق، ثم سكنت ألوانها للأبد.

- حسبي الله ونعم الوكيل.

تقول أمي وهي تحضن ليلى الباكية وعيناها ترمق التلفاز التالف بحسرة.

– تتحسبين عليَّ وأنا أريد الخير لكم؟!

يرد صالح.

– لا نريد خيرًا منك. اكفنا أذاك فقط.

تثير حنقه تلك العبارة أكثر؛ فيخرج من المنزل مبرطمًا بعباراتٍ أقرب للسُباب.

قد يبدو صالح كمتدينٍ لئيم، إلا أن له جانبٌ آخر أجمل.

لكل إنسان جانبٌ جميل مهما كثرت عيوبه.

تكتسيه هالةٌ من وقارٍ في عينيّ عندما أراه يخطب على منبر الجمعة بدلاً من إمامنا، الشيخ الهرِم ابن سلامة.

أشعر بصوتهِ حنونًا على الناس، يقربهم إلى الله بكلمة، ويبعدهم عن النار بوعيد. يرق قلبه لآيات الله فيبكي خشيةً وخشوعًا. يفرغ من الصلاة فيلتم حوله كبار الحارة ليشيدوا به ويشكروا أمًا أحسنت تربيته.

***

سيرة عائشة

برواية مطر

أمي، عائشة. الفتاة التي زُفت إلى عش زوجها حين بلغت السادسة عشر. كان قلبها يطيرُ من الفرح، كيف لا ويديها تتزين بالحناء، وتزين الحناء بيديها! آنذاك لم يكن للفستان الأبيض حضورٌ مدهش ، لكن جلابيتها الخضراء المزركشة بخيوطٍ ذهبية وخاتمها المسبوق بأساور تجاوز عددها الثمانية جعلت حضورها مبهجًا للروح والعين. تغبطها عليه كل فتاةٍ تنام وحيدةً تتخيل فارس أحلامها. فارس الأحلام الذي كان، آنذاك، أي رجلٍ ذي سمعةٍ طيبةٍ يطرق أبوابهن.

منذ الليلة الأولى، حينما فتح بابٌ كان موصدًا لستة عشر عامًا، استحالت عائشة من فتاةٍ مراهقة إلى امرأةٍ يانعة، تطبخ وتجلي، تنظفُ وترتب، تسهر وتترقب عودة رجلٍ يكبرها بثلاثين عاماً لتفرك قدميه في وعاءٍ ملئ بالماء والملح، ثم تقدم له نفسها بطوعٍ وحنيةٍ يتلذذ بها.

لم تكن أولى زواجاته. ولكنها كانت الأخيرة، و لم تكن لها شريكةٌ حينما تزوجته.

في الصباح، بعد الليلة الأولى، استيقظت وأحست بجسدها العاري يلاصق جسدًا آخر، رعشةٌ لذيذة انتابت قلبها وجسدها.

شعرها الطويل المسجّى على كتفيها حتى نهاية ظهرها، وثغرها الصغير القابع بين خدين أسمرين فتنا قلب زوجها.

سرعان ما انتفخ بطنها مبشرًا بقدوم طفلٍ لطالما تمنى قدومه زوجها، أبو صالح، الذي تزوج ثلاث نساء دون أن ينال ما يريده: طفلاً يكبر بين يديه، ويسند ظهره حينما يكبر. من شدة سعادته بنبأ حبل زوجته، قال لها وهو يداعب بطنها بأنامل كفيه:

- لقد تزوجت ثلاث بقرات، وامرأة واحدة. امرأةً واحدةً فقط!

ضحكت. من قلبها ضحكت.

صرخ صالح وهو في طريقه من رحم أمهِ إلى العالم الكبير المختبئ خلف غرفةٍ طينيةٍ مستطيلة الأبعاد.

عانق أبوه كل من هنأه، وأقام وليمة عشاءٍ كبيرة على شرف

ابنه ذي اليوم الواحد. بقدوم صالح، انتصر أبو صالح على كل من شكك برجولته، وهذا انتصارٌ قد طال انتظاره.

حبلت عائشة مرةً ثانية، وجاءت ليلى في ليلةٍ هادئة لم تغمرها سعادةٌ عظيمة في قلبِ أبو صالح كليلة بكره. ولكنه كان سعيدًا بطريقةٍ أو بأخرى. إنه انتصارٌ ثانٍ له في ملعب الفحولة، بطبيعة الحال، وعليه أن يسعد به. بعد خمسة أعوام، كان أبو صالح ينتظر مولوده الثالث، مولدًا أدرك جيدًا أنه لن يظفر برؤيتهِ مادام الجدري ينهش وجهه وجسده الممتلئ.

تساقطت شعيرات سالفيه التي كانت تكسبه مظهرًا مهيبًا، وشاربه الكثّ؛ فبانت ندبةٌ في أسفل ذقنهِ كانت تشوه وجهه المستدير والمضيء كشمس. أرادت عائشة أن تسأله عن هذه الندبة كسرٍ أخيرٍ يعترف به، إلا أنها أدركت- من البثور المنتشرة في وجهه وكأنها تخوض حربًا في ساحاتٍ عشوائية ، ومن نحول جسده الذي جعله كهيكلٍ عظميٍّ يرتدي جلدًا -أن الوقت المتبقي لها معه لا يجدر بأن يهدر في هكذا سؤال.

رغم ذلك، لم تيأس منه. لم تتصوّر بأن الفراق سنة الحبّ.

إنه الرجل الأول في حياتها، لم تحبّ غيره، ربما لأنها لا تعرف غيره من الرجال، ولكنها كانت سعيدة وراضية، فظنت أنها ستعيش معه للأبد.

في ذات الغرفة، التي ولد فيها صالح، كانت أشعة الشمس المارة عبر حدائدَ اكتساها الصدأ، والتي ثبتت على النافذة، تشكل علامة "إكس" بظلالها فوق جسد أبو صالح. حضر للبيت، بطلبٍ من عائشة، الشيخ ابن سلامة بعد أن انتابها الشك بأن عينًا حاقدة أصابت زوجها. يئن ويتوجع حينما يتلو الشيخ آيات البقرة ثم ينفثُ ما في صدره من هواء على جسده. أدركت عائشة حينها بأنها لم تتوهم قصة العين الحاسدة.

همّ الشيخ بالذهاب لأشغاله بعدما سكن أنين أبي صالح، فجثت عائشة على ركبتيها في حالة انكسار وهي تسأل الشيخ ألا يترك زوجها يواجه الموت وحيدًا دون أن يفعل له شيئًا. وعدها بأن يداوم على رقيته كل نهار، بعد صلاة الظهر. ولكن شيئًا لم يتغير.

بالكاد يفيق من احتضاره. يتمتمُ بعباراتٍ عشوائية وغير

مفهومة في الكثير من الأحيان، لكنها نابعة من ذكريات وصور راسخة في ذهنه المتأرجح بين سطور الحاضر وأوراق الماضي:
"صالح وينه. المزرعة. حلّليني يا عيوش"

يبكيان، خلف الباب الموصد، صالح وليلى كلما سمعا صوت أبيهما. يطرقان الباب بقوةٍ، ولكن لا أحد يجيب. حين يصمتان، بانتهاء آخر صدى لصوت أبيهما، تخرج عائشة لهما وعيناها تحبسان دمعًا يتعبها.

- ابي اشوف أبوي.

يقول صالح، وتكتفي الصغيرة ليلى بالنظر لأمها بعيونٍ حزينة. مازالا صغيرين على فهم مرض أبيهما، ولكن قلبيهما يشعران بأن هناك شيء سيء يبقي أباهما خلف هذا الباب.

- أبوكم تعبان. يخف وتشوفونه إن شاء الله.

تقودهما إلى مطبخ المنزل، تخرج بعضًا من التمر والزبادي. وجبة صالح المفضلة. يأكلان ثم يغُطان في النوم كطيورٍ تلتحف أوراق الشجر. تعود عائشة لزوجها وتلازمه طوال الليل كما كانت تفعل في النهار، تكمد رأسه بقماشٍ مبلولٍ بماء بارد،

تتفحص المصل المعلق بجانب جسد زوجها وتعد كل قطرةٍ تنساب في الأنبوبة المتصلة بشريان يده اليمنى. "ليت تعبك تعبي يالغالي" تخبره ولا يبدو أنه يستمع لقولها. عندما يدركها التعب، تغفو على صدرِه، كما اعتادت سابقًا، غير مباليةٍ باحتمالية انتقال العدوى لها.

- خذي يا خيتي.
- لا. كثر الله خيرك يا أخوي. عندنا ما يكفينا.

تجيب عائشة أخاها الأكبر إبراهيم، الذي رغم بخلهِ لم يتوانَ عن تقديم ما تجود به نفسه، وصوتٌ في داخلها يخبرها عكس ما تقوله.

يتردد إبراهيم بمد المئة ريـــال التي بيمينهِ مرةً أخرى، ولكنه ينكسف لحال أخته المتعففة حتى لأقرب الناس إليها، ويخاف أن يجيء يومٌ يواجهه فيه نسيبه أبو صالح فيعاتبه على تقصيره.

- ما ينفع هذا الكلام. خليها عندك يمكن تحتاجين شيء. الله يشفي بو صالح ويقومه لكم بالسلامة.

يلتهم الزقاق ظل إبراهيم، بينما لايزال لسان عائشة يلهث

بالدعاء له بالخير وبركة الرزق.

تعود عائشة للحجرة فيقابلها جسد زوجها الذي لم يبرح مكانه، قبلت جبينه ثم همّت بالإنصراف للعناية بأبنائها.

حينما عادت، كان جسد أبي صالح مسجّى لم يبرح مكانه، وأنبوبة المصل لم تنفد بكاملها بعد. إلا أن أمرًا غريبًا أربكها.

لم تسمع أنفاس زوجها المتعبة ولا أنينه.

اقتربت منه. عيناه تحدقان بالسقف دون أن ترمشا. خاطبتهُ، لم يرد. هزت جسدهُ بقدمها اليمنى والخوف يأكل قلبها. ولم يستجب. حينها تراءت لها حقيقة الفراق التي تجاهلتها. جثت فوق صدرهِ تبحث عن نبضةٍ تطمئنها.

إلا أن أنفاسه سكنت إلى الأبد.

***

- ولد، جاك ولد يا عايشة. مبروك.

تلتقط عائشة أنفاسها المجهدة، وتحضن جسد طفلها الملطخ بدمائها.

- سميته مطر، مطر على اسم المرحوم بو صالح.

*

سين (4)

جلست عمتي بجانبي، لا تكف عن فرك يديها ببعضها البعض، كأن بردًا قد نزل عليها فجمّد أصابعها، أربكني توترها فرحتُ أهزُ قدميّ توترًا في انتظار ما ستبوح به. طلبت مني أن أغلق الباب، أغلقته وعدتُ حيث كنت. وقفت وتلفتت يمينًا وشمالاً بحثًا عن شيءٍ تراه ولا أراه. الخوف ربُما!

مددتُ يدي نحوها وأمسكتُ يديها

- يا عمّة، ليس هناك ما يستدعي كل هذا الارتباك. لا أريد أن أعرف من هو إن كنتِ لا ترغبين بالحديث، ولتعذري وقاحتي باقتراح خصوصيتك لم أكن أقصــ...

قاطعتني قائلةً:

- سأحكي؛ فقد صبرتُ سنين طويلة أحمل هذا الـــ... لا أعرف ماذا أسميه، ولكني حملتُه وحدي وخبأته عمّا سواي. إن كل ما أريدهُ بعد هذه السنين الطويلة، أناسٌ يرنون إليّ، يخبرونني أنّي تحملتُ ما يكفي وآن الوقت

لراحةٍ أبدية، يسندون رأسي بوسادةٍ ناعمة، يقرؤون عليّ قصيدة أخيرة، يغطون جسدي بغطاءٍ حريريٍّ ويدعوني أموت بسلام.

كيف لإنسان وحيد أن يبقى هكذا، وفيًّا لذكرى خامدة ومهجورة لم تعطف عليه ريحٌ توقدها؟ لكن من أين أبدأ إذا كانت كل بداية هي نهاية بحد ذاتها؟!

*

مطر (4)

إنه الخميس، يوم السهر والغناء.

جرت العادة على أن نجتمع مساءً، أنا والشلّة، في مزرعتنا، حيث نعتزل الجميع، نغني ونرقص ونسمات النخيل تلفحُنا حتى يحل الصباح.

أخبرت حسين ونحن نقفل الدكان أن يحضر مبكرًا، رأيت في عينيه ترددًا قبل أن يسألني:

- من سيأتي؟
- لا أحد غريب، الشلّة نفسها: حكيم ومساعد ومطربنا عيسى.

فبدا عليه العدول عن المجيء. قلتُ له:

- سأنتظرك عند منزلي، إن لم تأتِ فلن أذهب..

يتحسس حكيم ومساعد، من مزاملتي لحسين بن علي، علي السيد المعروف بعمامته وعباءته السوداء. أخبروني أكثر من مرة أن عليَّ أن لا أثق به، لأنه وببساطةٍ ليس على منهجنا.

قلت لهم، آنذاك، بانفعال ملحوظ:

- الصداقة لا دين ولا مذهب لها. الصداقة أسمى من أن نحكرها في إطارٍ ونفندها بأقاويل وكذبٍ مُفترى. إن حسين صديقي، ولن أتملص من صداقته لأجل نهج ساروا عليه أجدادي وأجداده.

فأيقنوا أنهم في نقاش لا طائل تحته. وصمتوا متوجمين.

أرى في حسين أخًا جميلاً، وصديقًا وفيًّا، وملجأً أركن إليه عندما لا أجد سماءً تتسع لحزني. أبثه وجعي، ويبثّني همه. لنا صندوق أسرارٍ واحد، صداقتنا مفتاحهُ وقفله.

***

الجميع كان هناك، ظللنا نتسامر ونضحك والقمر ناعمٌ ضوءه من فوقنا. أمسك عيسى بعودهِ العتيق، شد على أوتارٍ منه وأرخى على أخرى. اختبر صوت العود بتمرير ريشةٍ صفراء صغيرة فوق أوتاره، ثم بدأ غناءه بموالٍ مترف:

"والبارحة ونيت بالصالحية

سمعوا ونيني ساكنين الشروقات

وأهل الميرز قالوا: وش ذا القضية

ملزوم راعي ذا الونين أصبح ومات"

كَم يبدو رقيقًا عيسى حين يضمّ عوده!

له صوتٌ عذب يمرُ على القلب قبل أن يصل للأذن.

صرخنا "الــــلــــه". فانطلق يشدو بصوتٍ شابه الحزن والحنين:

"الحلــــم يجمعني بكم كــــل ليله

يطوي بساط البعد ما بيننا البين

صارت حلوم الليل عندي وسيله

اشوفكم يا أحباب وانتم بعيدين

لازلت في ذكرى الليالي الجميله

لامن طرالي ما مضى هلت العين"

- مسكين !

قال مساعد وهو يهز كتفيه منطربًا لدندنة العود.

وقف حكيم أمامنا ممسكًا بكاميرا فورية، كان قد اشتراها مؤخرًا، وأشار بيده لنقترب من بعضنا البعض من أجل صورةٍ جمعية. ومض الفلاش القادم منها في أعيننا المبتسمة وخرجت الصورة ملونة بهية. تناولناها واحدًا تلو الآخر نحدق بها وكأنها معجزة عجيبة. الجميع يبتسم فيها، ماعدا حسين الذي كان يحاول التسلل بخفيةٍ إلى الخارج. التفت يمينًا وشمالاً أبحث عنه ولم أجده. فنهضت واتجهت صوب باب المزرعة حيثُ رأيت ظلاله تعبره. أدركته قبل أن يبتعد، وسألته إلى أين هو ذاهب.

– ألم تسمع؟ الأغنية!

قال.

– إلا! ما بها؟

– الحلم يا مطر. الحلم.

رمى كلماته وراح يفرق بين خطواته مبتعدًا.

تلكأت لوهلةٍ أفكر بمغزى كلامه. أردت أن أصرخ فيه ليعود، عندئذٍ تذكرت.

الحلم! ليلة الخميس! زهراء!

أرخيت يدي الملوحة له وعدت للداخل ضاحكًا على سذاجته.

يا لغبائهم أولئك العاشقين، يبحثون عن لقاء في حلم!

الحلم الذي مهما طال لن يتجاوز الثواني السريعة.. لن يستغرق سوى سويعات بين عقارب ساعة الحياة. سيبقى مجرد حلم في حدود سرير، في عالم مبهم، وسينتهي بصياح ديكٍ قذر أو شعاعٍ متسللٍ من نافذةٍ مواربة.

***

سوق الخميس هو المكان الأمثل لقضاء الإجازة الأسبوعية. يتوافد عليه الناس من جميع قرى الأحساء وأطرافها المتناثرة. وهو أقرب للأرض الواسعة الخاوية، يرتكز الناس في داخلها يعرضون أشياءَ مستعملة للبيع بثمن زهيد: أثاث، مكيفات، ملابس وأحذية، منحوتات وهواتف منزلية والكثير من البضائع.

أما أنا فأبيع فراخ الدجاج الصغيرة.

كنت قد قضيت الليلة الماضية في مزرعتنا، بعد أن غادر الجميع منتشيًا بما ناله من نغم، حتى حلّ الصباح فجمعت الصيصان

من قنّ الدجاج أمام أمهاتهنّ. نقنقوا غاضبين لفعل هذا الإنسي الذي انتشل صغارهن من تحتهن متخليًا عن إنسانيته التي تحرم عليه أن يفرق بين أمٍ وصغيرها.

صلبت سبابتي على شفتي حين هممت للخروج من القنّ وقلت لهنّ: أووووش.

صمتوا حينها؛ فسمعت صوت صابر السوداني، عامل المزرعة، من خلفي يتمتم: لاحول ولاقوة إلا بالله .. جنّ الولد!

أقلني حسين من المزرعة إلى السوق بعربة أبيه "الددسن" ذات الباب الواحد والحوض الغاص بطاولاتٍ خشبية مكومة فوق بعضها البعض كان قد جلبها من نجارٍ أفغاني اتفق معه على حصة من الربح مقابل ما يبيعه له. اعتدنا أنا وهو على هذا الذهاب معًا، والبيع معًا، وأحيانًا نتشارك الربح إن لم يبع أحدنا شيئًا.

نويت أن أسأله عن حلم البارحة الذي ذهب من أجله، لكني تراجعت تاركًا له لذته ووجعه.

***

- قرب يا ولد قرب، طاولات نجارة أفغانية، شغل عدل ميه بالمية. يا خاله شوفي الطاولات، سعرها زين ولو تبين ضمان نعطيك عشر سنين.

ضحكت على صراخ حسين وبقيت مكاني أنتظر مرور طفل يتعلق بأكمام أبيه ويحثه على شراء فرخٍ له. الأطفال زبائني المفضلين.

هززت قفص الفراخ لتجذب أصواتهم ذاك الظل القصير المرادف لظلٍ أطول. بلع الطفل الطُعم وشد على ثوب أبيه ثم رمق أبيه بعينين ممتلئتين بالرغبة والطفولة. استجاب الأب لتلك النظرة وابتاع واحدًا له.

أخرجت فرخًا ووضعته في كيس ورقيٍّ مثقوب من جانبيه. تناوله الطفل وهو يغرغر بالضحك. لم يتبقَ الكثير داخل القفص. أربعة فراخ فقط. صرخ بي حسين طالبًا مساعدتي في نقل طاولتين إلى حوض عربة أحد المشترين. حين فرغت كانت هناك امرأةٌ بعباءةٍ سوداء تقف بجانب القفص، هرولت إليها:

- آمريني يا خاله، كم فرخ تبغين؟

لم تنبس ببنت شفة، وأشارت بأصابعها: ثلاثة. ارتبكت، آنذاك، بلا سبب، عدت للوراء وأخرجت ثلاثة فراخ. وضعتهم واحدًا تلو الآخر في الكيس. عقلي لازال غير مستقر، علامة ما في كفها قد أربكته.

الشامة!

رفعت رأسي ونظرت إليها متعجبًا:

- مها؟

لم ترد. أحسست بأنني أخطأت فتعرق وجهي خجلاً ولم أتجاسر لأخطف نظرةً أخرى إليها.

- كنت سأقتلك إن لم تعرفني.

قالت بصوتٍ خفيض.

تداركت شكي وأيقنت أنها هي. أبدلت ملامحي المرتبكة إلى أخرى واثقة. لم أنظر إليها. أبقيت نظري على الفراخ المذعورة في الكيس.

- أعرفكِ. ولو كنتِ ترتدين عباءات الدنيا كلها.

لم يبدو أنها اقتنعت بكلامي، صرفت الحديث لمجرى آخر،

سألتها عن سبب قدومها فقالت:

- الوله!

صدقت، وخفق قلبي وابتسمت.

- والفراخ كيف ستدفعين ثمنها؟

سألتها.

- سجلها على الحساب! وخذه حين نلتقي.

- قبلة عن كل فرخ! وقد أرابي فيها!

ضحكت عليّ، وقالت:

- حسنًا، الليلة .. في مكاننا المعتاد، لا تتأخر!

مضت تسري في طريقٍ طويلٍ يلتهم جسدها وعيناي ترمشان كعدسة كاميرا تصور انحناءاتها، وقوفها وفضفضة عباءتها.

***

- كيف عرفتها؟

سألني حسين.

- الشامة. الشامة يا حسين .

حكاية حسين

كما رواها المطر ذات يوم

كان أبي حينذاك في مقتبل شبابه، لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره. حمل لقب "السيد" منذ يوم مولده، فتباهى به بلا علمٍ يستند إليه حتى لدغته الألسنة بما لا يحيط به علمًا فلم يقدر على إجابتهم . حمل نفسه ورحل للعراق سعيًا للتعلم .

هناك، في محلّة الحويش، اشترى والدي بيتًا صغيرًا واستقر به وحيدًا لا يسامره سوى مكتبته الصغيرة. واظب على حضور الدروس الدينية والتحق بإحدى الحوزات العلمية التي يتوافد عليها الدارسوان من أقطار الخليج. عكف على قراءة الكتب التي تزيد من مكانته كفردٍ من الأشراف؛ فأحس بمكانته وتميزه عن العامة.

عندما أتمّ عامه الأول، أصبح المرافق واليد اليمنى لشيخ المدرسة. رأى فيه الشيخ ذاته الشابة، توقه المتدفق وإصراره على مناقشة صغائر الأمور قبل كبائرها، انعكافه الثابت على التزود بما يقوي إيمانه ويريح قريرته بأن ما هو عليه حق وهدى. فأوعز إليه

الزواج بابنته الوحيدة، فاطمة. أراد والدي أن يسأل شيخه وقتًا ليفكر بهذا العرض وهذه الزيجة، إلا أنه شعر بأن طلبًا كهذا سيساء فهمه وكأنه إهانةٌ مبطنةٌ للشيخ وتهربٌ من مناسبته.

- يا شيخي الفاضل، قد جئت هنا طلبًا للعلم، وهذا كل ما أبتغيه الآن. وإن ابنتكم الكريمة من أشرف النساء والسعدُ حليف من يظفر بها. إلا أنّي أسألكم السماح والمعذرة؛ فما أقوى على تشريفٍ كهذا وأنا هنا بلا أهلٍ وسند.

قبل الشيخ اعتذاره اللبق آنذاك؛ فاطمأن على صيتهِ الطيب بين أقرانه. لكن ما لبث أن اعتزله الشيخ و أوجد له مرافقًا بديلاً يقبل بابنته.

شعر بالغربة تنقض عليه وتمزق فؤاده، وأنّه وحيد لا يملك شيئًا يأوي إليه. لا صديق يبثه الهمّ إن أشجاه، ولا زوجة يسامرها في الليالي الملاح، أو يحكي لها عن الحنين النابض في صدره لوطنٍ بعيدٍ لازال يتمسك بحبّه.

هكذا خسر تميزه بانصراف الشيخ عن مرافقته، وصيته

الطيب بما عزف عن فعله. ضاقت به الدنيا وشدت الخناق على روحه. تساءل في نفسه: ما الذي يدفعني إلى البقاء؟

مضى ناحية البيت والفكرة الوحيدة التي كانت تطوقه هي العودة إلى أهله ووطنه. قابله، بالقرب من البيت، جاره الأصلع عباس، ذو العروق الإيرانية، وسأله المساعدة في حمل حقائب عائلةٍ كانت قد استأجرت الدور العلوي لمنزله. أراد أن يتلكأ وينصرف لما جاء إليه، لكنه خاف أن يقال عنه أنه سيء الجيرة إضافةً إلى ما فقده من صفاته الحميدة في الأرض التي ظنّ أنها جنته الضائعة.

حمل ما استطاع حمله من الحقائب ولحق بعباس. ففاجأته فتاةٌ تسر الناظر لوجهها البهيّ، تلف رأسها بوشاحٍ أسود يرمز للحزن، إلا أنه أضاف لوجهها الأبيض جمالاً آسرًا. ابتسمت له فبادلها الابتسامة. وضع ما كان في يديه أمامها وانصرف لا يلوي على شيء.

حين دلف إلى بيته، كان قد نسي خطة العودة للوطن. اتكأ على فراشه، وهامت عيناه في صورة ضبابية تصوّرها عقله له. صورة لتلك الفتاة الجميلة.

وقع في حبّها. عاش دور العاشق المتلصّصِ على حبيبةٍ لا تعلم بوجوده في حياتها. مكثت هي وعائلتها في بيت عباس المنخرط من سلالتهم، و لم تشَ أفعالهم بنية الرجوع لديارهم التي جاؤوا منها.

قابلها مصادفةً في السوق، في طريق عودته من الحوزة، فتصلب في مكانه حتى عبرت أمامه وألقت إليه ابتسامةً أخرى. عندها أيقن بأنه يريدها أكثر من أي شيء آخر في هذهٰ الحياة.

خطبها من أبيها. لم يتردّد الأب بالموافقة، و لم يسبق إجابته صمتٌ يوحي بأنه حائر. عباس ،كان قد عرف بنية والدي قبل أن يتواجه مع والد الفتاة، فوشوش الأب. لكنه لم يبالِ بحديث عباس؛ فهو يدرك أن عباس رجل حقود تبلغ جرأته حد الوقاحة، وأنه كان يمني النفس بها/ أو بأمي "خاتون".

هكذا بنيت الجسور لأعبر إلى ضفة الحياة. جئت من أبٍ عربي، وأمٍ فارسية، في أرض يتشاركها الجميع، لكني لا أقدر أن اسميها وطني!

قضيت أربع سنين من حياتي هناك. صورٌ منها لازالت

عالقةً في ذاكرتي. عتبة الباب المتساوية بالأرض، التي لا يسمح لي بتجاوزها. لوحةٌ نحاسية نقشت عليها عبارة "صلّوا عليه" كانت تتشبث بجدارٍ مقابلٍ لعتبة الباب. وجه أمي المضيء. عين عباس المفقوءة ترعبني حد البكاء بمجرد النظر إليها.

عشت سعيدًا في أحضان أمي، وفي غربةٍ ظننتها الوطن! تغير ذلك كله حين قرر أبي العودة لوطنه. لم تشأ أمي أن تعيش غربةً جديدة بعدما اعتادت غربتها الأولى. تجاسر عباس على قرار أبي ووجدها فرصته الوحيدة النابضة بأمل إعادة خاتون/ أمي، إلى حياته. أدرك أبي مسعى عباس فظنّ السوء بأمي.

ترك كل شيء لها. حملني على كتفه، وبيده الأخرى صرة فيها قليل من الملابس. ومضينا. وجهي يتأمل أطلال منزلنا، ووجهه واجمٌ يحدق إلى الأمام.

عزوف الناس عنه حينما عاد لمدينته كان الأمر الأكثر إجهادًا له. اكتسب لكنةً جديدة. امتزجت فيها لكنته الأصيلة و تلك التي اكتسبها من غربته. دأب على تقويمها بمحادثات تستمر لعدة ساعاتٍ معي. أنا الابن اليافع الذي لا يدرك فائدة اللكنة.

- لهجتك هي القطر الذي يضمك إلى مركز الدائرة أو يقصيك منها.

قال لي ذات مرة!

تردد على الأسواق بحثًا عن متصيدٍ في الماء العكر. يبحث عن شخصٍ يسأله ويناقشه بما هو عليه، لكن لا أحد سأل. أثار ذلك الندم في حفيظته. وبقيت الأجوبة نائمة في داخله.

تزوج من امرأةً أخرى، أصبحت زينب أمًا ثانيةً حنونةً على هذا الصبي المقسوم قلبه إلى شطرين . شطر هنا، وآخر هناك.

لم يكن أبي قاسيًا في طباعه، حين أسأله عن أمي يجيب بأنه لا يعلم عنها شيئًا. فهم عزلتي، عندما ولد أخي غير الشقيق وانصرفت زينب باهتمامها إليه؛ فوعد أن يتقصى عن أمي خاتون ويجمعني بها قريبًا.

مضت أيام طوال وأنا أنتظر شعاعًا يضيء قوقعة العزلة التي سكنتها روحي. حين جاء ذلك الشعاع، كان قبسًا من ظلام. أخبرني والدي أن لا أحد يعلم بمكان والدتي. بعضهم قال إنها

تزوجت عباس ورحلوا عائدين إلى بلاد فارس.

هكذا رحلت من حياتي إلى الأبد. شطري المتعلق بها أصبح فارغًا، والشطر الآخر انطفأ بتقاعس أمي زنيب عني إزاء حبلها المتكرر.

أصبحت خاليًا من الداخل. متوجسًا من الخارج، وظللت على هذا النحو أعوامًا طويلة، إلى أن التقيتك أنت. نعم أنت يا مطر. شعرت كمن وجد نصف روحه فيك. النصف الآخر أعادته لي زهراء.

الصداقة والحبّ. الأمران الوحيدان القادران على لملمة بعثرة الروح والجسد.

قد لا تصدق ما أخبرك به الآن يا مطر. وقد تظنه رياء صديقٍ يحاول التلطف والتقرب إليك بكلامٍ واهٍ. لكنك، رغم الاختلافات الكبيرة بيننا، الصديق الوحيد في حياتي. صديقي الذي يشاركني الروح ذاتها.

أما زهراء فالكلام يطول عنها. إنها الزهرة التي نمت في أرضٍ قاحلة/ قلبي. نمت حتى تجذرت عميقًا في داخـــــلي.

مطر (5)

كان المطر يهطل حينها. قفز قلبي لقطراته كطفلٍ يلهو في سكة المطر. إن المطر دلالة العشق الأولى؛ عشق السماء للأرض، وماء الأمنيات المختبئة تحت غطاء الغيم. تبللني قطراته، فيمتص جسدي عذرية السماء وينبت كشتلة ياسمينٍ على الأرض/ عشيقة السماء.

هل تبكي السماء؟ تساءلت.

هل المطر بكاء السماء؟ هل الرعد غضبها؟ أم تنهيدة حُبِست في صدر السماء حتى انهالت بهذه الهيئة المرعبة؟ هل الريح أنفاسها؟ والغيم أوكسجينها؟ ولَمَ يستبشر الإنسان ببكاء السماء؟ هل لأن نرجسيته تقتضي بأن يبني أفراحه على حزن الآخرين؟ . . . لستُ أدري!

دفعت الباب بهدوء لئلا يصدر صريرًا ينبه بوجودي في هذا المنزل المهجور منذ مدةٍ بعيدة، والمتاخم لمنزل الشيخ أبي سلامة. إنه منزل عيسى، فيه لقت عائلته حتفها. الأبوان والأخ

الذي يكبره بعامين. التهمتهم النار بنهم شديد. لم يستطع أحد الخروج منها. وحده عيسى ظل يحدق مشدوهًا في النار! حيث كان يلعب مع صبية الحارة خارج المنزل آنذاك.

- لماذا لم أكن معهم؟ لماذا أنجو لأعيش في غربةٍ لا تنتهي.

لأعيش وحيدًا برأسٍ يطرق بين سنداني الحزن والوحدة.

لو كنت معهم! جوف أرضٍ يجمعنا أجمل من سماء تفرقنا.

قال لي عيسى وهو يبثني لوعة حزنه قبل أن يرحل بعيدًا في إحدى الصباحات.

صعدت الدرج المفضي إلى السطح العلوي للمنزل حاملاً معي "كاميرا" حكيم، التي استلفتها منه بعدما أخبرني أن صداقتنا لن تشفع لي إن لم تعد إليه تلك الكاميرا بحالةٍ جيدة! كانت السماء قد توقفت عن البكاء حينذاك. مشيت بحذرٍ ناحية الجدار الملاصق لجدار منزل الشيخ/منزل الحبيبة مها. سرقت نظرةً إلى سطح منزلها فوجدتها منعكفةً في الزاوية البعيدة تقرأ كتابًا. بحثت عن حجارة صغيرة ورميتها نحوها. أصابتها في رأسها مباشرةً. تلفتت ذات

اليمين والشمال تبحث عن المغفل الذي رمى الحجارة على رأسها.

أشرت لها بيدي فاقتربت وعيناها غاضبتان.

اعتذرت لها بخجلٍ شديد؛فهزت رأسها راضيةً

- يالله تعالي.

وأشرت إلى مكاني على سطح منزل عيسى.

- طيب أنتظر.

ذهبت تتفقد الماكثين في باطن منزلهم، ثم عادت وتسلقت الجدار الفاصل بيننا، والمبلل بماء المطر. تعثرت بقميصها الطويل والمزركش بألوان عديدة فمددت ذراعي والتقفت جسدها الطائر في الهواء بخفةٍ كريشة سقطت من جناح حمامةٍ عابرة. احمرت وجنتاها وتداركت حرارة الموقف قائلةً وهي تهذب شعرها:

- ثقيلة، أليس كذلك؟

أسندنا ظهرينا على الجدار البارد والسماء أمامنا لا نهاية لها.

أخرجت الكاميرا التي أتيت بها، كنت أشعر بفرحٍ وأنا أخرجها من غطائها، قلت لمها: اقتربي لنأخذ صورةً معًا!

لم تمانع. جمعت طوبًا كان مبعثرًا في السطح وثبتُّها فوقه،

أعددت المؤقت الذاتي، وكم بدوت فخورًا بنفسي آنذاك! ثم استدرت عائدًا بسرعةٍ. جلستُ بجانبها وومض نور الكاميرا في لحظتها. خرجت الصورة، لم تكن ملامحنا ضاحكة، و لم تكن ألوانها جيدةً بما يكفي، إلا أن صورةً معها كانت كافية لعمرٍ كامل.

- أحبّكِ.

قلت لها بعدما قلبنا تلك الصورة بين أيدينا بسرورٍ عظيم، فطالبت بالمزيد:

- شكثر؟

صمتُ للحظة أفكر بإجابة ترضي غرورها.

- ما تعرف؟

- أعرف.

أجبتها ونهر دافئ كان يموج في داخلي:

أحبّكِ بقدر ما أتمنى أن تمتد دقائق هذا اللقاء إلى الأبدية المطلقة. أن تتعطل ساعة الكون ونبقى سجناء هذه اللحظة. لا أحد يقاطع خلوتنا، ولا أحد يعبر أمامنا سوى الشهب السابحة في هذه السماء. وبقدر ما أريد أن نكبر سويًا. نشيخ معًا. نموت

معًا. نضحك ونبكي معًا. نغضب ثم نتراضى بقلوب مُحِبة. يمكنني الآن أن أطلب من ساعة الزمن التي ما غفلت عن ثوانيها أن تأخذ قسطًا من الراحة وتتوقف.

- الله!

نطقت وهي تربت على كتفي بكفها الناعم.

- لماذا لا تكتبها لي؟ كتبت لك الكثير من الرسائل. أما أنت فلم تكتب لي قط.

- لا داعي للكتابة. أستطيع أن أقولها لك دون أن أتوقف للحظةٍ واحدة. فقط دعينا نلتقي.

أراحت رأسها على كتفي الأيمن وهي تقول:

- فلنلتقي إذًا على الورق. إن الكتابة فضاء اللقاءات المباحة، طريقٌ للخلاص من الألم، المكان الذي لا نحتاج فيه إلى موعد مسبق. كل صفحةٍ جديدة هي فضاءٌ جديد. كل سطر لقاء آخر. تخيل لو أنك تكتب لي كتابًا! سيكون بمثابة حياة كاملة. فقط جرب أن تكتب. أن تضخ مياه المشاعر المختلطة المتدفقة في داخلك إلى نبع

الورقة. حينها ستنبت شجيرة صغيرة، وستكبر كلما سقيتها من كلماتك.

- هذا إذًا ما تفعلينه؟ تكتبين لتلاقيني على ظهر ورقة؟

- نعم .. لا! أعني حين أحتاجك أكتب لك. وذلك يحدث غالبًا. إلا أني أكتب أحيانًا أخرى لأجد نفسي التي تظهر بصورةٍ واضحة لا أقدر أن أخفيها حينما أعتزل العالم وأسامر القلم.

نكست رأسي علامة على الموافقة والفهم. إلا أن هذا الحديث أكبر من أن يستوعبه شاب بسيط مثلي.

لا حيلة للمغرم بدودة الكتب سوى الاستسلام.

طوقت أصابعي بأصابع كفها وشدّت عليها؛ فاستحالت إلى شباكٍ لا تقطع. انتهزت الفرصة لأشاغبها أكثر مغرقًا كفي الأخرى في بحر شعرها الأسود كالليل.

- مها ... لو طلبتك من أبيك .. هل ستوافقين؟

أرادت أن تجيب فطلبت أن أنهي حديثي أولاً.

- أنت تعلمين، لستُ سوى صبي في دكانٍ قديم، أجري لا

يمكن أن يؤمن لكِ أحلامك كلها، بل نصفها ... أو حتى شيئًا واحدًا منها. والحياة صعبة، وقد أبدو مصطنعًا هذه الحكمة إلا أن المال يدفع بالحياة للأمام، وأخاف أن أعود بكِ للوراء حيث لاشيء سوى رجل يحبّكِ. لقد أخبروني حين أتممت المرحلة المتوسطة بأنني أصبحت رجلاً. والرجال لا يقعدون على كراسي طوال اليوم في غرفٍ مغلقة. وأن ما حققته من تعلم كفيل بجلب وظيفةٍ تضمن مستقبلي. وها أنا اليوم رجل كما قالوا لي. أكدح نهارًا بين سلال الخضار ولا مستقبل يتراءى أمامي. إن استمريت على هذا النحو لن تقبل بي أي فتاة. حتى أنتِ.

- لا تفترض أمرًا من رأسك. حاول أن تسألني وسأجيبك بصدقٍ حتمًا. سأقبل يا مطر. سأقبل إن كنت تحمل الحبّ لي في قلبك. أقبل بك كيفما جئت، فقيرًا أشعثَ، أو غنيًا وسيمًا. ألا تدري أن للمرأة فرصة وحيدة في الحبّ؟ وأن ما بعد تلك الفرصة ليس سوى محاولة عابثة في ترميم شروخ الذاكرة بلحظاتٍ جديدة، لكنها باهتة

جدًا، لا لون لها. وأنا قد نلتُ فرصتي مسبقًا. أنت هي يا مطر.

صوت الرعد جاء مفاجئًا، ولحقته زخات مطرٍ خفيفة كما لو أنها سترة النهاية لمشهدٍ مسرحي، قفزت من مكاني لئلا تتبلل تلك الكاميرا، وحين التفت ناحية مها رأيتها تهمّ بتسلق الجدار عائدة إلى سطح بيتهم. أمسكت ذراعها بقوة قبل أن تفلت مني.

- هل لكِ أن تقبليني؟

سألتها.

أفلتت يدها من أعلى الجدار واستدارت بتؤدة باتجاه هذا الصوت المبلول بالتضرع. غضنتُ حاجبيَّ وأملت جذعي إلى الأمام. اقترب وجهها الجميل من وجهي وكأنهما سحابتين تلتحمان في الأفق. طبعت قبلةً على خدي أوحت بامتعاضها مما انتهى به لقاؤنا . ثم اعتلت الجدار وهي تتسلق يدي المتشابكتين.

اختفى بعد ذلك نور القمر بتراكم السحاب.

مها (1)

ذنبي أنيّ لا أتنبأ بما يمكن أن يحدث، لا أحبّ لعبة الاحتمالات ولا أعلم طريقًا للقدر سوى ما يختاره لي . لكني وقعت هذه المرة، وقوعًا لم أقدر أن أنهض من شدة قوته، وكنت أصرخ وأترقب أن أرتطم بالهاوية إلا أنيّ بقيت أهوي دون أن أرتطم. وكل ما أريده الآن هو نهاية لهذا السقوط.

أكنتُ مجنونةً حقًا لأتشبث برجلٍ تعجبني رائحته؟ أتكور في حضنه وأندس كما لو أنه معطفٌ دافئ؟ وصوتهُ، من شدّة رجولته، يشدُ قلبي كما لو أنه عصفورٌ يحبّ الغناء. وحين تصافح أصابعه خدي أرفرف!

لم يكن أوسمهم، بل كان أكثرهم رجولةً!

لم يكن أشدهم، بل كان ألطفهم!

لم يكن أفصحهم، بل كان أكثرهم صدقًا!

ولم يكن يقرأ، لكنه مستعد لأن يسرق لي مكتبات الدنيا كلها!

ولم يكن صالحًا للحبّ، إلا أن القلب تعلق به.

***

مالا يمكن للرجل - رغم اكتمال عقله- أن يدركه أن هناك أنثى تدفن نفسها كما لو أنها بذرةٌ، فقط لأجل أن ينبت هذا الحبّ. إن امرأةً وفيّة يمكن أن تهبك ألف حياة حتى في غيابك، كما أن امرأة خائنة يمكن أن تعطيك ألف موتةٍ وهي تنظر لعينيك مباشرة.

هل كنتُ وفيةً؟ لقد أعطيته عمري، بأيامهِ وأعوامهِ منذ أن تلاقينا. لقد أعطيته عينيّ، ألا يكفي أنيّ عشتُ في العتمة، حين لم يكن يصلُني ضياءه؟

قالت لي أمي، حين رأتني أعبر للعتمة:

- كل امرأةٍ تخسر الحياة لأجل رجل، تستحق أن تموت وحيدةً.

ما أصدقكِ يا أمي! لقد تطلب الأمر مني أكثر من عشرين عامًا لأدرك حماقتي.

وها أنا أنتظر وحيدة.

أجدّلُ شعري الطويل وحيدةً، وقد كان يريد أن يبعثره كل ليلةٍ، أغني وحيدةً، وقد كان يحبّ غنائي، أكتسي بفساتيني الفضفاضة كما لو أنيّ غولةٌ لا تشتهى، وقد كان يغويني ليسرق نظرةً لجسدي العاري.

ماذا وهبني الحبّ؟ الأسى .... وشيئًا جميلاً لا يُنسى.

لستُ نادمةً على أنيّ أحببتُ، وأنيّ دفعت ثمنًا أعظم مما يمكن أن يدفع في سبيل الحبّ، بل نادمةٌ على كل لقاء تلكأت عن حضوره، على كل فرصة كان ترميهِ أمامي، وكنتُ بخوفي أتجنبه.

أليس الحبّ جنونًا؟ ندمتُ أني كنتُ أتمسك بعقلي.

- يا بنتي اعقلي، واتركي الجنون عنك.

قالت أمي.

- إني مجنونته يا أمي !

صوتٌ نطق في داخلي.

***

ما الذي حدث إذاً؟

قد غاب عني منذ لقائنا الأخير، لم يحدث أن تخلف عن الوقوف هناك، في شارع غرام، وانتظاري حتى وإن طال مجيئي، فقط لنتخاطف النظر ونحبس في أعيننا صورةً بهيةٍ لظل الحبيب، وكم كنت أحبّ وجهه الأسمر تحت نور الشمس. لكنه لم يكن هناك، مرّ اليوم الأول، الثاني، وحين جاء الثالث أدركت أن هناك شيئًا ليس على ما يرام. حتى حسين لم يكن هناك، وكم بدت زهراء ذابلة وهي تتلفت ذات اليمين وذات الشمال دوُن أن تجد من كان يمدها بضيائه الخجول.

حين طال الغياب على قلب حمقاء مثلي، تشجعت وذهبت لدكان أبي مرزوق لأراه، لا شك أنه هناك.

وفي الدكان، لم يكن هناك سوى أبي مرزوق يشتم وهو يهش الذباب عن خضاره، وفمه يلوك السباب.

أين ذهب!

بعد بضعة أيام، جاء الخبر اليقين.

- سافر، لا ليس سفرًا، بل هروبًا.

قالت لي أخته ليلى حين صادفتها في الجامعة.

- إلى أين؟ ولماذا؟

صمتت لبرهة وهي تنظر إليّ بعينين متوجمتين.

- إلى الكويت، رافقه حسين. ألا تعرفين لماذا؟

- لا!

- بسببكِ. لقد أضاع حياته بسببكِ.

بكيت، لا أدري لماذا، شعرت بكلامها يجرح وجهي. وعندما علمت أني لا أفهم ماذا تقصد قالت لي:

- الصورة! المغفل نسي الصورة في الدكان، والتقطها أبو مرزوق. الخبيث أخبر رجال الحي عنها، ولو أن أخي صالح لم يكن معهم لعرضها عليهم جميعًا قبل أن ينهاه، أبوكِ كان معهم أيضًا. ما يعرفه الجميع الآن أن مطر قد استباح عرض أحدهم، لا يعلمون من هي، ولكنهم لن يقبلوا به بينهم بعد الآن. ركب باصًا متوجهًا للكويت، بعدما أشبعه صالح ضربًا، ولأول مرة أرى أمي لا تنبس ببنت شفة على فعلٍ كهذا.

لم أكن أقوى على الكلام آنذاك، تجمدت مكاني، ووجه ليلى

يدور كما لو أنها ذبابة.

- لازالت الصورة لدى أبي مرزوق، ولا أحد يعلم ماذا قد يفعل بها، ورجال الحي أصبحوا قلقين من وجود هذه الفتاة في بيوتهم. كوني حذرة يا مها، وتذكري أنكِ أنتِ من صنعت بمطر كل هذا.

***

لا يدمرك، إلا شيءٌ تحبه!

***

في المساء، كنت تحت أقدام أبي جثة تتلقى الضربات دون شعور. طيفه كان أمامي.

يمسح على وجهي، وهو يبكي.

*

سين (5)

في لحظة حبّ، قطعت وعودًا كثيرة، لا أذكر عددها، ونصفها قد نسيته تمامًا. كتبت قصائدَ لو أنك جمعتها لخرجت بديوانٍ مذهل، لكنك وحدك قرأتها، كان شعورًا رائعًا وكنت راضيًا حينها. رسمت، ولونت، وفعلت أمورًا أقنعتك أنك عاشق .. حلقت في السماء!

والآن ....

تبحث عن ظلّك الآخر، عن أنفاسك المهدرة على وجعِ القصائد، والدقائق التي قضيتها في قوقعة الغياب، حيث لا أحد ينظر إليك، ولا أحد يأتي ليمسك بيدك، أو يخرجك من هذه العتمة.

هل كنت بحاجةٍ لهذا؟ تتساءل. تتمنى لو أن القدر لعبةٌ في يدك، أن تستطيع غربلة مالا يعجبك، لكنك في نهاية المطاف تعلم جيدًا، أنه حتى وإن لامست هذا القدر الضبابي، ستغير شيئًا واحدًا فقط/ ألا يغيب عنك ذاك الذي يتسبب بوجعك.

تعلمت من خلال تجربتك "العاطفية" أمورًا عديدة، كأن لا تسقط في هاويةٍ لا تدرك عمقها، ولا تغرق في غيابٍ لا موعد لنهايته، على تقويم قلبك الأحمق، لكنك لا تبرح تسأل نفسك: متى يعود؟

أقصى ما يمكنك فعله، أعني الآن بعد كل هذا الحطام المتراكم في داخلك حتى بات يخنقك، هو كتابة قصتك، وتدرك أنها قد لا تصنع كتابًا جيّدًا، لكنها حتمًا ستصنع شيئًا مختلفًا.

***

منذ أن أزاحت عمتي ستائرها الداكنة عن قصتها البيضاء، تقلبت ذاكرتي وجاءت بحكايةٍ كانت مخبأة في سديمها. تجاوزت عمتي عقدها الرابع بأيامٍ قليلة، ولازالت تحمل هذا الحبّ كما لو كان في صباه القديم. ورغم أنيّ لم أمضِ في هذه الدنيا نصف ما قطعته هي، إلا أنيّ تخليتُ عن حبّي بسهولةٍ تامة. خيّل لي أن نهايته ستكون سيئة لا محالة، فاستعجلتها وأتلفت أوراقها قبل أن تكتمل.

قلتُ لنفسي حينها: لا يمكنني أن أدع شخصًا أحبّه يشاركني أرواحي المتبقية، ويتعذب، كما أشعر، مع كل روحٍ تفرد جناحيها

وتتجه للسماء.

أليس الحبّ أن نحافظ على قلوب من نحبّ لئلا تجف وتصدأ؟

هكذا كنتُ أرى النهاية إن مضيت في هذا الحبّ.

أذكر توجّس الصديقات، ترقب المتربصات لخروج أرواحي المتبقية؛ ففتاة مثلي لا يمكن أن تكون جزءاً من متاهةٍ اسمها الصداقة ما دامت غريبة الأطوار، تسقط على حين غرة، وتنتفض أمام مرأى الجميع تاركةً لهن الخيال في ربط الأمور بالشياطين والجن، ولتقدم لهن سببًا كافيًا للإبتعاد عنها كما لو أنها بئرٌ مظلمةٌ تفوح منها رائحة كريهة. حدث ذلك مرةً واحدة، روح واحدة خرجت بينما كنت أهمُّ بالخروج من الجامعة، و لم تتوانَ بعضهن بتوثيق هكذا حادثة وتبادلها على صفحات مواقع اجتماعية عديدة بعنوانٍ يجذب كل أحمق: "شاهد: فتاة تصاب بمّسٍ من الجن لابتعادها عن الصلاة"!

حينها أصبحت منبوذةً، لا أحد يقترب من فتاة الجن. لم أهتم لهن: لا أحتاج صديقًا لأحيا، قلت لنفسي، سأكون صديقي الوحيد، ولكن سرعان ما أيقنت أن حياة بلا صديق كغصنٍ حزين

لا يمره عصفور يغني.

تركت الجامعة: مثلي لا تحتاج لأن تدرس، يكفيها أنها تعرف كيف تحاك الحروف، أخبرت نفسي، و لم أندم على ذلك.

لم يردعني أحد، جلّ ما كانت تفكر به أمي بعدما وصلها فيديو صرعي، أو موتتي الصغرى كما أسميها، عبر إحدى مجموعات "الواتساب" التي أنشأت للشائعات والنميمة، أن لا أحد سيتزوجني الآن!

دفنت أرواحي السابقة كلها في الكتابة، كتبت وكتبت.. حتى وجدت الأنثى التي تسكنني.

ودخل حياتي "هو" عبر الكتابة.

لازالت رسالته الأولى عالقة في ذاكرتي، بكلماتها، وإغوائها المهذّب. كان جارفًا حديثه، يضرب ضفتي قلبي الساكن ويزحزح كبرياءه ويعطيه لينًا لم أعهده من ذي قبل. وامرأة مثلي لا تغريها سوى الكلمة!

أرسل ليخبرني أنّي أخطأت في مواضع عديدة في قصتي الأخيرة، كتب:

(لا يمكن أن تسردي قصتك هكذا، تمهلي. القارئ سيفهم كيف بدت وانتهت هذه القصة، لكنه لن يتقمص شخوصها، وسيظل فاقدًا لتجربة إحساس الشخوص في حكايتك. اللهث في السرد يعني أنكِ تريدين الانتهاء من الكتابة، كما لو أنها فرض لا رغبة لكِ بأدائه، ولا أحد يريد أن يتناول وجبةً أعدت على عجل).

ثم ختم رسالته بدهاء:

(ماذا تهبُنا قصص الحبّ خلاف الأسى والتعب؟ إنها لعبة الأصابع الذكية، متاهة القلوب البسيطة التي تتعلق بالكلمة، بالمشهد الضبابي الذي تتمناه دون أن تناله. وهم الورق! نعم إنها كذلك. لم أقرأ ولو لمرةٍ واحدة قصة حبٍّ حقيقية، حيث يبقى فيها الإنسان إنسانًا ببساطته وغبائه ، هل وجدتِ بطلاً أبلهَ لقصة حبٍّ مكتوبة؟ لا أظن. نحن يا سيدتي، في الروايات على سبيل المثال، نتلبس الشخوص، جميعها، لنجمل أنفسنا تارةً - هنا، نكون مثاليين للغاية!- ونسرد شهواتنا وأخطائنا تارةً أخرى في شخصية هامشية الحضور على صفحاتنا.

بالمناسبة، تملكين أصابعَ ذكية!)

تجاهلته و لم أكلف نفسي عناء الرد على رسالته بالرغم من أن رسائل كهذه لا تصلني كثيرًا، بل إنها الأولى من نوعها!

قلت لنفسي حينها: لا يقرأ مجلة نسائية إلا رجل محروم.

وحين نشرت حكايةً أخرى، عاد وأرسل لي:

(يبدو أنكِ قد أخذتِ بنصيحتي. أرى تحسنًا كبيرًا، أليس من الرائع أن نشكر من يقدم لنا نصائحَ مفيدة ومجانية؟)

استفزني بهذه الثقة الزائدة عن حدها أمام امرأةٍ لا يجديُ معها التباهي. رددتُ على رسالته:

(تكتب لي وكأنك قد قرأت كتب العالم بأجمعه، وفي داخلي شيء يخبرُني أنك لست سوى رجلٍ آخر تحاول التسلق بكلماتك، التي أجدها رائعة في مواضع قليلة، لشيءٍ أجهله. دعني من هذا، ولنعد للكتب، فكما ترى أنا لا أكتب كتابًا أو روايةً، بل أرى نفسي قاصة، أدون حكايا متناثرة، أدخل شخوصها في بعضها البعض، أمزجهم وأمنحهم رفقة جديدة غير التي اعتادت عليه، ومن هنا أمضي بهم، في حكاياتي، حسب طبيعتهم التي يكونوا بها ومنها.

أحبّ أن أخطئ لأتعلم، والكتابة خطأ بحد ذاتها، يقترفه كل من لم يجد سواه طريقًا لكشف وجه الحياة، ليتعلم كيف يمضي في هذه الحياة مخلفًا وراءه أحزانه، أرواحه، وليالي الأسى التي عبرت فؤاده.

فأرجوك أن تدعني أعيش أخطائي).

لم يردعه ذلك، أغرق بريدي برسائله وكلماته. تارةً يكتب لي حكايةً ويطلب مني أن أعيد صياغتها وأنشرها باسمي. أمتنع وأتجاهله، وتارةً أخرى يطلب رأيي في قصيدةٍ ما ويدون تحتها رؤيته الفنيّة، التي يدرك أنها تجذبني أكثر من القصيدة ذاتها.

أليس رائعًا أن أجد رجلاً مُطلعًا ومثقفًا كما أحبّ؟ أليس جميلاً أن تحبّي فكرًا يرتقي بكِ قبل أن تنظري لوجهٍ أو جسد؟ أليس هذا هو الحبّ المنشود في قلب كل امرأة؟

لقد تمكن من استباحة قلبي قبل أن أسمح له. فوجدت نفسي أطلق أصابعي راكضة على مساحات "الكيبورد"، أكتب له ما في داخلي، أحدثه عن أرواحي واحدة تلو الأخرى، أشاركه تفاصيل يومي، همومي التي لا تنتهي، وقدري الضائع ... حينها فقط

أخبرت نفسي أني قد أجد قدرًا كنتُ لا أنتظره.

أرسل لي ذات يوم قصةً لرجلٍ عاش حياته بعيدًا عن أرضه وأهله.

(كان يسير وحيدًا في شوارع حارته التي هجرها منذ أعوامٍ طويلة، لم يكن بحاجةٍ لأحدٍ يشرح له ملامح الحارة الجديدة وتقاسيمها، كلما تاه توقف لبرهة وقلّب بصره في نوافذ البيوت المصطفة، يبحث عن بيتٍ لا يزال على هيئته الأولى، تلكُ التي لاتزال في ذاكرته، وحين يجده يكمل مسيره. ظلّ يحوم في الحارة لساعات عديدة، حتى وصل لشارعٍ ينتهي بهضبةٍ ترابية لم يجد أهل الحارة نفعًا من إزالتها. استنكر عليه أهل الحارة تسكعه هذا؛ فاقترب منه أحد الرجال ليسأله عما يبحث عنه هنا، لكنه لم يعر له اهتمامًا. ظلّ في ذلك الشارع ولم يتحرك منه، عيناه كانتا مصوبتين نحو نهايته حيث يتفرع الطريق لجهتين مختلفتين من الحارة. وكأنه يتساءل أي الطرق يجدر به أن يسلك. حين تلونت السماء بشفقها الأحمر كان قد اختفى. سرعان ما عاد في اليوم التالي، لم يفعل شيئًا سوى انتظاره على طرف ذلك الشارع، تمامًا كما

حدث في أولى زياراته، كرر المجيء والذهاب لعدة أيام حتى تجمع الرجال بالقرب منه ليضعوا حدًّا لهذا الغريب المتطفل. كلما حدثوه لا يجيب عليهم، حتى عزموا على طرده بالقوة. أمسكه رجلٌ من يافطة ثوبه مهددًا إياه بالضرب إن لم يكف عن قدومه، تعالت أصوات الرجال مهددةً إياه أيضًا. وقبل أن يشرع في لكمه أحد، شق شيخٌ كبير صفوف المتجمعين. كانت يبدو عليه الهيبة إذ إن جميع الرجال تراجعوا ليفسحوا له مجال العبور بينهم. نظر الشيخ لهذا لوجه هذا الرجل الغريب، سأله:

- ماذا تريد؟

لم يجبه أيضًا.

أمعن كلٌّ منهما في النظر إلى وجه الآخر، كما لو أنهم يبحثون عن شيء خفيّ بين ملامحهم. وحين بدأت الريبة تأكل بقية الرجال الواقفين بانتظار نهاية لهذا العبث، نطق الرجل الغريب قائلاً للشيخ:

- ما عرفتني يا صالح؟

جمد الشيخ مكانه. بدت عليه الدهشة والخوف معًا.

- حسين! أنت حسين!

قال له الشيخ)

انتهت القصة، أو جزءٌ منها كما أرسل لي.

سألته عن نهايتها، فأخبرني أنه لا يزال يعمل عليها. قال:

(إنها ليست بقصةٍ عادية. حقيقية، وموجعة، لا أعرف تفاصيلها الكاملة، ولكني أبحث عن نهاية تليق بها. بين يدي دفتر صغير كُتبت عليه تفاصيل هذا الوجع، بخط اليد، إنه كنز يا سين! أليس رائعًا أن تقرأي حزنًا قديمًا مخطوطًا كما لو أنه من القلب إلى القلب؟)

أحببته، بجنونه وصلابته، برسائله وقصائده.

لكن الحبّ لا يكفي دائمًا.

أذكر ذلك اليوم جيدًا، حين تواعدنا بخفيةٍ والذنب واضحٌ في ملامح رسائلنا. سيكون لقاءنا الأول، كوب القهوة الأول، النظرة الأولى لوجوهٍ نجهل ملامحها، بينما الشغف لرؤيتها عظيم كقفزةٍ نحو الهاوية.

أعددتُ كل شيء، حجة الغياب، الوقت الكافي لعينيّ لتحفظ أقصى ما يمكنها حمله من ملامحه، وجهي وشعري المجعد بطوله

الغاوي. لم يتبقَ سوى أن أفتح هذا الباب لبدايةٍ جديدة أجهل عواقبها، وأحبّ نبضة الخوف التي تنتاب صدري كلما فكرتُ بنهايتها.

قال إنه سيأتي من مدينته البعيدة، سيقطع المسافة وإن لم يخرج بغير نظرة لامرأةٍ تظن أنها بلا قدر.

وحين حان الموعد، كان أحد مقاعد الطاولة الدائرية فارغًا، كوب القهوة فقد حرارته ولم يتجرأ المحبّ المنتظر أن يتذوق منه رشفة، والوجوه فقدت ملامحها جراء الانتظار القاتل.

ماذا حدث؟ لا شيء! سوى أنها حياتي تسير وفق جدولها الزمني مبتعدةً عن كل قدرٍ قد يغير من اصطفاف أرواحها السبعة، فرمتني وحيدةً على عتبة باب منزلي أنتفض خوفًا وفي عيني دمعةٌ لا أذكر سببها.

في اليوم التالي أرسل لي رسالته الأخيرة:

(يبدو أن الأمر لم يكن سوى حلمٍ ناعمٍ في مخيلةٍ وعرة. يدرك صاحبها أن حلمًا كهذا بعيد المنال، لكنه بحماقته يهرول مباعدًا قدميه ليصل لبدايته، وعندما يصل لا يجد سوى شارة النهاية.

وبالرغم من ألمهِ الشديد، لا يبكي. لأنه ببساطةٍ يعلم أن الأشياء لا تكتمل نصابها في يديهِ. تعلمتُ من الحياة أن أصعب ما يمكن للمرء أن يحمله معه هو جرحٌ في قلبه، وأن أصعب ما يمر به هو انتظارٌ لا نهاية له. وأني لا أملك وقتًا طويلاً لأهدره في انتظارٍ وترقب).

أغلقت شاشة الحاسب بقوةٍ، كما كنتُ أكافح لئلا أذرف دمعة حزن تزيد من تعبي. وقلتُ لنفسي حينها، كما أفعلُ عادةً لأقلل من حجم خساراتي:

أيتها المرأة طوقي أرضكِ، إنهم الرجال، لا يعبرون أرضًا دون أن يحملوا بنادقهم فوق أكتافهم. لا تكوني الصيد الضائع في حلمٍ لا تفيقين منه.

وكم أحسستُ بالقوة حينها!

***

لم يتبقَ في ذاكرتي الآن سوى قصته. أعني تلك التي قال أنه يبحث عن نهايةٍ لها. أهي مصادفة للقدر؟ يا ترى لها علاقة بطريقة مباشرة أو مقاربة لقصةِ مها، عمتي.

عدتُ لرسائله القديمة، ويبدو هذا كاعتراف بأنني لم أتوانَ عن الإبقاء بشيءٍ يذكرني به. التاريخ الظاهر فوق شريط العنوان يظهر أن عامًا كاملاً قد مضى على كل هذا. قرأتُ قصته مجددًا:

(وحين بدأت الريبة تأكل بقية الرجال الواقفين بانتظار نهاية لهذا العبث، نطق الرجل الغريب قائلاً للشيخ:

- ما عرفتني يا صالح؟

جمدَ الشيخ مكانه. بدت عليه الدهشة والخوف معًا.

- حسين! أنت حسين!

قال له الشيخ).

والسطر الذي كتب فيه:

(إنها ليست بقصةٍ عادية. حقيقية، وموجعة، لا أعرف تفاصيلها الكاملة، ولكني أبحث عن نهاية تليق بها. بين يدي دفتر صغير كتبت عليه تفاصيل هذا الوجع، بخط اليّد، إنه كنزٍ يا سين!)

أعدت قراءتها مرات عديدة، وفي كل مرةٍ أحاول أن أصنع خيطًا يربط بين ما كتبه وبين ما أخبرتني بهِ عمتي. وحين فاض فضولي عن حدّه قررتُ أن أكتب له رسالة.

(مثلي لا تعرف كيف تبدأ رسائلها، بالرغم أن أول ما يكتبه الناس العاديون في رسائلهم هي التحية، ولكنني كما تدرك جيّدًا لستُ منهم. عام مضى، بخيبته، بأمله، بحزنه، وسعادته، ولستُ أعلم أيهم عبر صدرك وأيهم استقر به.

لكني ما أعلمه أن هناك امرأةً قضت أعوامًا عديدة في الحزن، والسعادة لم تكن تعبرها سوى سويعات قليلة. أنا لا أتحدث عني بل عن تلك التي كنت تبحث عن قصتها، وأنك تجهل نصُفها وتعلم نصفها الآخر الذي تغيب تفاصيله عنها.

كنت قد أخبرتني أنِ لديك قصة، أو تعرف قصة أحدٍ ما. ربما المصادفة هي التي وضعتنا على جانبيها كما لو أننا حاشية على صفحاتها، ولكنني واثقة أني أستطيع الآن إعطاءك ما أردته. تلك النهاية).

أرسلتها؛ فجاء الرد منه سريعًا كما لو أنه انتظرها عمرًا بأكمله:

(أخبريني المزيد عنها).

*

مها (2)

إنك لا تعرف أخطاءك إلا عندما تكبر معك. حين تراها ترافقك، توقفك عن الحياة، تتغلب عليك في مواضع وتسحبك للخلف، حيث لا تريد أن تذهب مجددًا، في مواضع أخرى.

ماذا يمكنك أن تفعل آنذاك، غير أن تتمنى أن يعود كل شيء كما كان، أن تعود للحظة اقتراف ذلك الخطأ، أن تحظى بفرصةٍ أخرى للاختيار لتتمكن من تدارك الوطء فوق هذا اللغم الذي قد يكلفك خسائر لا تقوى عليها.

ينقصك فقط آلة زمن!

هل كنتُ حمقاء بما يكفي لأحمله طيلة هذه السنين؟ أذكر وجهه الأسمر، يا تُرى كيف غيرته التجاعيد الآن؟ شعره هل كساه البياض أم لازال أسودَ كغطاء الليل؟ أشياء كثيرة أجهلها عنه، ولا أعرف سوى أمر وحيد، أني لازلت أحبّه.

يبدو الأمر كما لو أنه فيلم هندي تافه صنع على عجل، أعني هذا الحبّ الذي لا ينفك عن قلبي، بغيابه وذاكرته التي هي

أغلى ما أملك، بل الشيء الوحيد الذي أملكه في هذه الحياة.

كنتُ أنتظر يوم عودته، لابد أن يعود، سيسامحه الجميع، إنه رجل، لكني سأظل المجرمة الوحيدة، لأنني ببساطةٍ أنثى.

أذكر أن أخاه صالح قد زار أبي وأطال المكوث عنده، لم أعرف لم هذه الزيارة، لكنها بالتأكيد تخصنا، أنا وهو.

في المساء، أخبرتني أمي أن فضيحتنا هذه لم يعرفها سوى بضعة رجال عاهدوا أبي أن لا يتحدثوا بها حفاظًا على منزلته بين رجال الحارة، وأن صالح قد اتفق معه على أن أكون لمطر حينما يعود، ليغلقوا هذه القضية الشائكة.

كنت حينها أستمع لحديث أمي بلا مشاعر تظهر على وجهي، وبلا إحساس أشعر به في داخلي. سأكون لمطر، وسيكون لي، ولكننا، إن حدث هذا، سنتعايش مع فكرةٍ واحدة، وهي أن لا أحد منا كان يملك الاختبار.

- السبت الجاي يرجع ويملك عليك.

قالت أمي وهي تهم بالخروج من غرفتي.

***

ماذا كسبنا يا مطر من هذا الحبّ؟ هذا الشقاء؟

كم أود أن أسمع إجابته، وعيناه مصوبتان نحو عينيّ مباشرة! أريد جوابًا صادقًا كما لو أنه أنفاسٌ أخيرة لغريقٍ في بحرٍ لا شاطئ يضع له حدًا، جوابًا يمسح غبار الانتظار عن وجهي، يعيد لي عينيّ، ونبضاً في قلبي فقدتُ لذّته منذ أن رحل.

يكفيني الآن أملٌ صغير، حياةٌ قصيرة، فستانٌ قديم، وبيتٌ طيني، فقط حينما تكون يديّ مطوقةٌ بيديه. كم اشتقتُ ليديه المتسخّتين!

***

هل جاء اليوم الموعد؟ والرجل المنتظر؟

كان الأمر أشبه بكابوس داهمني، جمّد كل شيء بي، حمّلني تعبًا تنوء به يداي/كفاي الصغيرتان.

الخبر ذاته يبث في المذياع، وعلى التلفاز. ألسنةِ الناس لا تتوقف من تكراراه، الدهشة الحزينة واضحة على كل وجهٍ أقابله.

- دخلوا الكويت! قامت الحرب في الكويت!

وكل ما تبقى في رأسي هي فكرة واحدة.

هل يعود؟!

ماذا يمكن للقدر أن يفعل أكثر مما خلفه في قلوبنا من أسى؟ ألم تستطع حروب العالم كله أن تنتظر حتى أضمّه بين ذراعيّ؟

كنتُ أتساءل عمّا يحدثُ معه آنذاك. لابد أنه وجد طريقًا ما للخلاص والخروج من تلك الأرض. لابد أنه سيعود بلا خسائر قاصدًا وجهتي دون أن ينحرف عن طريقها.

لم أتجسر لأسأل أحدًا عنه، كان مجرد الحديث عنه ذنبًا فوق ذنبٍ أعظم. انتظرتُ أحدهم ليأتي بخبرٍ سعيد، لكن لا أحد جاء.

المذياع يقول بأن مجموعةً كبيرة قد هاجرت للحدود، الصور أيضًا على الجرائد تظهر الشيء ذاته. كنتُ أمعن النظر في صور الحشود المتجمعة لتنتظر إذن الدخول للأراضي السعودية. أبحث عن وجههِ بينهم، لون وجهه يكفي لأن أتعرف عليه، لا أحد يملك سمرته المغوية أبدًا. إلا أني لم أجد سوى وجوهٍ حزينة.

لم أعرف ماذا يمكنني أن أفعله حينها سوى الصلاة. كنتُ أنتحب في سجودي كما لو أني أمارس طقوس رجاءٍ أخير لا أريد بعده شيئًا. صليتُ وصليت ليمنحنا الله قدرًا أجمل.

في كل يوم ينقضي كان جزءٌ من قلبي ينطفئ. لم يأتِ خبرٌ عنه. الحارة بأكملها تنتظر خبرًا عنه وعن صاحبه حسين. وبلغني أن خلافًا كبيرًا نشب بين أبي حسين وصالح، يلومه على خروج حسين بصحبة مطر.

- ما كنت راضي، اختار أن يرافق صاحبه على رضى أبيه.

قال أبو حسين لصالح.

تمنيتُ لو أنيّ الآن أملك فرصةً واحدة لأختار. ما يحدث له خطئي أنا. ما كان يجب أن يحدث كل هذا. أقصى ما كنّا نطمح له حياة مليئة بالضحكات معًا. والآن يبدو أن أحلامنا استحالت إلى حياة كثيرة الدمعات.

ورغم أني أدرك أن أمنية تتحقق بسهولة لا تدوم طويلاً، تمنيت لو أني لي أمنية تستجاب.

*

سين (6)

توقفتُ كثيرًا عند رسالته التي يطلب فيها المزيد، بدا عليها أنها كتبت على مضض، غاضبة كأنها ملامة لم يكبحها الفضول. فوق الرسالة يظهر اسمه كما في السابق: إبراهيم بن عبدالكريم، تجاوره أيقونة دائرية الشكل وصغيرة، وضع فيها صورته التي لم أراها من قبل. ضغطت عليها سريعًا كما كنت أشعر بنبضات قلبي سريعةً وقوية. إنها الفرصة الأولى، لا بل إنها الثانية، لأرى وجه إنسانٍ أحببته.

"كلِكّ" وظهرت الصورة أمامي.

هاهو أمامي، رغم كل الغياب السابق، والوداع الذي جاء بلا عنوان أو رغبة. لوجهه لون الحطنة، تحمله لحيةٌ واضحة الحدود، يرتدي نظارةً لا تخفي مظهر عينيه الجاحظتين كما لو أنهْما تنتظران فريسةً لتصطادها، وله شفتان صغيرتان كثغر طفل.

حفظت الصورة سريعًا كما لوأنني أقترف ذنبًا. وصرتُ أكتب له قصة هذه العمة المعذبة من الانتظار والحياة.

قضيتُ ليلتي بطولها أكتب وأكتب، أتقمص روح عمتي وأستلهم الحرف من قلبها ليعبر أصابعي.

أعظم ما يمكن لكاتب فعله هو أن يكتب عن آلام الأخرين، أن يجعلها تمر فوق صدره وتخرج كما لو أنها وجعه. أن يعيش تعبًا لا يعني له، لكنه يتلذذ به، يشقيه ويصمد أمامه.

حين انتهيت من كتابة كل ما أخبرتني به عمتي، توقفت للحظة، أفكر بخاتمة جيّدة لرسالةٍ تلكأت عن كتابتها أيامًا طويلةُ.

(لوجهك غوايةٌ كنت أجهلها).

وضغطت فوق زر "إرسال".

*

مها (3)

أفضل نصيحة قد يقدمها لك إنسان هي أن لا تنتظر. أن تتناسى وجعك وتعبر للضفة الأخرى من هذا العالم، أن تفتح نوافذك لنور يبدد عتمتك التي تصنعها بإرادتك.

كم من الأيام نحتاج لنحزن؟ كم من مساحات الروح نستطيع أن نهبها للحزن؟ الأحمق فقط من يرفع الرايات البيضاء أمام جيوش الحزن.

ولا يقع في الحبّ إلا أحمق.

***

كل يوم ينقضي بلا خبر عنه كان أشبه بركلةٍ قوية في قلبي. كم من الركلات سيصمد أمامها قلبي؟

كدتُ أن أجن. نسيتُ كل شيء في حياتي وتعلقت بكل شيء يذكرني به. وكلما طال غيابه، زاد غضب أبي. كان أمله الوحيد هو أن يعود مطر، ليصلح ما أفسده/ أنا.

لقد عشت في ظلمة أبدية، لا نور يعبر داخلي، ولا عينيّ.

وحين أردتُ أن أخرج للنور، كنت قد جننت.

أعرج على مكان لقاءاتنا، حيث الجدار الذي اعتدت على تسلقه لتكون ذراعاه في الجهة المقابلة تلتقفني.

لكن الجدار حزين ووحيد، ولا أحد خلفه ينتظرُني. لم يكن هنا سوى الشمس بوهجها. أطلقت بصري نحوها ورحتُ أحدثها:

هل ترينه؟ كيف هو؟ أين هو؟

أخبريه عني، عن تعبي، عن كل الأشياء السيئة التي تحدث لي في غيابه، عن كل الأشياء الجميلة التي أخبئها حتى يحين موعد عودته. أخبريه أنه كان لا يجعلني أنتظر، كان دائمًا سباقًا لهذا الحبّ، ولكنني الآن أنتظره بوجهٍ حزين لن يقوى على الحياة دونه.

أخبريه أنه المطر، وأني جافة وجارحة كزهرة صبار، ولم أكن معه غير وردةٍ ندية.

أيتها الشمس، أريد مطر. أعيدي لي مطر.

***

لم تهبني الشمس ما أريد، بل كانت غاضبة مني أيضًا.

سلبتني عيني. وحين أدركت أني لم أعد أرى كما كنت، بكيت لسبب واحد: ليت وجهه كان آخر ما أرى.

أصبحت معطوبة العقل والعينين. أعيش في عتمة دائمة. أرتجي ضياءه ليعود ما ذهب مني.

إن أقسى ما يمكن أن تشعر به أن تكون فارغًا من كل شيء ما عد الانتظار، أن تشعر بأنك لا تعيش قدرك، بل قدرًا آخر أصابك عن طريق الخطأ ولا تجد أحدًا يمكنه أن يفهم ما تمر به أو أن يعيد لك قدرك الضائع.

حمّلني أبي على عجل وذهب بي لطبيب عيون، كان يخاف أن يعود مطر فيجدني بلا بصر، ناقصة، فيتراجع عمّا كان ينوي القيام به. أخبره الطبيب أن أعصاب عينيّ تأثرت من وهج الشمس، وأنه عمى غير دائم، بالإمكان الشفاء منه. ثم وصف لنا قطرة عين يجب عليّ أن استخدمها حتى يعود لي النظر تدريجيًا. إلا أن عينيّ بقيت في عتمتها الأبدية.

انقضت الحرب، أما أوجعها فبقي في صدر كل من فقد عزيزًا. لا شيء يعود كما كان حينما تكسره، تيقنت من ذلك.

عاد الجنود لأهاليهم، وعاد المغتربون لوطنهم، أما المفقودون؛ فلم يُشفَ لهم جرح و لم ينتهِ ألم المنتظرين لهم.

سرعان ما ذهب صالح للكويت ليبحث عن أخيه وحسين. مكث قرابة الشهر وهو يطلق قدميه في الطرقات بحثًا عن أمل يعيده إليهم. لا أحد يعرف صاحب تلك الصورة التي يحملها صالح معه. وضعها على أوراق عديدة ووزعها في كل شارعٍ يمر عليه، لكنها سرعان ما تختفي بين أوراق المفقودين الآخرين.

تألم حتى يئس؛ فقرر العودة تاركًا مطر لله.

ركب مع سائق أجرة ليقله إلى محطة الحافلات، وهناك فقط استطاع أحدهم أن يتعرف على صاحب الصورة التي انزلقت من جيبه وهو يهم بالنزول من السيارة.

- أعرفه. أعني هذا الذي في الصورة!

تهيأ له أنه سمع ما أراد أن يسمعه قبل أن يغادر، إلا أن السائق أعاد عليه:

- أعرف هذا الرجل. هل تبحث عنه؟

عاد صالح إلى السيارة بلهفةٍ ليستمع لما قد يخبره به السائق.

لم يكن يشعر بسعادةٍ أو حزن آنذاك، من شدّة المصادفة التي جاءت قبل أن يفوت الأوان كما يظن!

- والله؟! والله تعرفه؟ وينه؟ تعبنا ندور عليه وما لقيناه.

تلكأ السائق قبل أن يجيب، ثم قال:

- نعم أعرفه، وأعرف صديقه الذي كان يرافقه.

- تقصد حسين!

قال صالح. ثم أردف:

- سألتك بالله، خذني إليهم.

كان صالح مستعدًا لأن يرجوه لأعوام كثيرة مقابل أن يرى أخاه مجددًا. شعوره بالذنب جراء إجبار مطر على السفر قبل أن تندلع الحرب أشعل حربًا أخرى داخله، لا أحد ينتصر فيها.

كان أمله فقط أن يرتاح ضميره، أن يعود به لوطنه ويزوجه من كان يحبّها. أن ينتهي هذا الأسى.

- لا بأس سآخذك لصاحب الصورة. وحده أعرف مكانه؛ فقد تفرق هو صاحبه و لم يعودا معًا.

- موافق. أعطني دقيقة أعيد حقائبي.

أعاد صالح حقائبه للسيارة، حملها دفعة واحدة من فرط سعادته. أخرج بقشيشًا كريمًا للسائق قبل أن ينطلق به، إلا أنه رفض وتمنع عن أخذه.

في الطريق، لم يتملك صالح نفسه من فرحته وأخذ يسرد قصة مطر للسائق، وانتظار أهله له، وبحثهم عنه. أما السائق فقد كان هادئًا كحجر.

توقفت السيارة بعد مشوار طويل. التفت السائق ناحُية صالح، وقال له:

- تجده هنا. في مكانٍ ما هنا.

أما صالح فقد كان مشدوهًا لا يفهم ماذا يحدث له الآن.

جلّ ما يراه عن يمينه ويساره سورٌ طويل كأنه بني لئلا ينتهي، وأمامه شارعٌ ضيق يشق أرضًا خلاء ويفضي إلى قبورٍ متراصة من ازدحامها.

أعاد نظره إلى السائق قائلاً:

- هُنا؟!

***

عاد صالح سريعًا لمدينته. الخبر انتشر في الحارة كلها. "مات مطر". "مطر في رحمة الله". "ادعوا لمطر". "ستقام صلاة الغائب على مطر في ظهر الغد".

أما أنا فكنتُ أشبه بالصبارة التي تبلد شعورها، فأصبحت جافة، وحيدة، ومنعزلة عن العالم كله. لم أصدق كل ما قالوه، كنت أردد في داخلي أنه لازال حيًّا ينتظر الفرصة ليعود لي، وأن هذا الكابوس سينتهي وسأستيقظ حيث يعود نظري، ويعود مطر، وأضحك كثيرًا عليهم ... معه!

لكنهم سلبوا كل شيء مني، الأمل الذي أتشبث به، والأرض التي تنتظر موعدًا لم يحن بعد.

- غدًا تذهبين مع أخيكِ للرياض. ستقيمون لدى عمكِ هناك. أبوك أمر بهذا، ما كان يصبره عليك هو الأمل بأن يعود مطر ويأخذك في منزله، لكن هذا لن يحدث الآن، وأنتِ من جلبتِ كل هذا لكِ .. ولنا.

قالت لي أمي وأنا أشعر بدمعةٍ في عينيها.

حينما لا تملك شيئًا في حياتك سوى خطإٍ وحيد تحاسب

عليه لما تبقى من أيامك؛ فلا ضير بأن تمضي في الحياة بلا شعور بالذنب.

كل ما رغبت به هو أن أنظر لمرةٍ أخيرة لعيني أمي، وأنا أقول لها أني لم أندم على كل هذا.

وهكذا رحنا، أنا وأبوكِ يا سين، فتح لنا عمنا بيته، عاملنا كأبنائه، وحين شعر بأن مكوثنا الطويل لن ينتهي عرض فكرة الزواج على أبيك بابنتهِ الكبيرة التي كانت تفوقه عمرًا بسنتين إضافيتين. لم يكن متاحًا له الرفض؛ فقبل على مضض.

هل تعرفين الآن لَمَ والديكِ على هذا الحال الكئيب؟

أنت لا تتحمل عواقب خطئك وحدك، بل تسربلها من تحبّ ومن حولك.

وهنا في هذه المدينة المزدحمة بناسها وضوضائها ظللتُ أنتظر مطرًا يهطل ويعيد لي كل ما فقدته: عينيّ، من أحب، وضحكتي التي كانت صاخبة الفرح.

لم يتبقَ لي سوى هذه الصورة التي أتحسسها بأصابعي حينما

أشتاق ولا أجده، كان قد أعطاني إياها مطر ذات لقاء، أخبرني بأنه التقطها من أجلي فقط وأنها النسخة الوحيدة لوجهه في هذا العالم.

ألم يكن هذا كافيًا لأحبّه عمرًا يفوق عمري؟

*

سين (7)

إلى أين تأخذني هذه الحكاية؟ قضيتُ يومين طويلين وأنا أتساءل وأنتظر جوابًا من إبراهيم الذي يبدو أنه عاد إلى الاختفاء منذ أن أخبرته عن حكاية عمتي.

العجيب أن مصادفة كهذه حدثت مع شخص ظننتُ أنه قد غادر حياتي إلى الأبد.

قد يعود المحبين لبعضهم البعض بفعل الحنين، الندم، الضعف من استمرارية الحياة بلا كتف يساند أحدهم، لكن أن تكون حكاية قد انقسمت بينهما فهذا عجيب حقًا!

توقفت عن الكتابة، أرسلت لي الصحيفة تتساءل عن هذا التوقف المفاجئ. لم أستطع أن أختلق عذرًا فتجاهلتُ رسالتهم كما أفعل عادةً مع كل شيء.

كيف لي أن أكتب شيئًا آخر غير ذاك الذي يؤرقني؟ فكرتُ بأن أكتب حكاية عمتي وأعدها للنشر، لكني تراجعت، لازالت الكثيرمن التفاصيل مبهة، ثم أني لا أقتات على حكايات

الآخرين وأوجاعهم.

أصبحت أجالس عمتي أكثر. أنهال عليها بكومة أسئلة عن حكاياتها. لم تكن تمانعها، إلا أنها كانت تداري ذاكرتها لئلا تشقيها.

- لا أعرف يا عمّة كيف للكِ أن تحملي كل هذا معكِ طيلة الأعوام الماضية! لم تكن أعوامًا قليلة، كيف إذا كان الحزن يتوسدها؟ ظننتُ أن للإنسان نهاية في كل شيء. في الحبّ، في الاشتياق، في الغياب. لكنكِ، كما أرى الآن، أقوى من أن تغلقي كل نافذةٍ تصيبكِ رياحها بتعب.

تطيل الصمت قبل أن تتحدث، تستدير بتؤدة ناحية صوتي وتجيبني:

- هل تعرفين لَمَ خلق الإنسان؟

أصمت ولا أجيبها. فتكمل حديثها:

- لقد خلق الإنسان ليؤمن بشيء في هذه الحياة. وما أن يؤمن به، يهب حياته كلها له. يلاحقه وإن أدار ظهره

له، يرجوه وإن كان يدرك أنه لا يغفر ولا يخضع، ولا يتلاشى إيمانه بانتظار وصبرٍ طويل. وإني آمنتُ بالحبّ، أن لكل منّا فرصة واحدة للحبّ. تخيلي يا سين لو أنني تجاوزته. كيف ستكون حياتي؟ سأتزوج؟ سأرزق بأطفال؟ سيكون لي بيت وبعل؟ ثم ماذا؟ سوى أن سأذكره في كل ما يحدث لي، وسأرسم صورةً ضبابية له في كل هذا. سأعيش نصف حياة، كطائرٍ جريح، وأعلم جيّدًا أنها لن تكتمل إلا به، وأن جرحي لن يلتئم إلا به، فهل تكفيك نصف حياة وجرح؟

***

في الصباح التالي استيقظت على وميض هاتفي منبهًا بوصول بريد إلكتروني جديد. كان منه.

(آنستي،

لا أعلم إن كنتِ قد اختلقتِ هذه الحكاية ظنًّا منكِ أن حيلةً كهذه قد تفتح طريقًا جديدًا لنا، أم أنكِ قد وجدتِ ما كنتُ أبحث عنه؟ في كلا الحالتين أعيد ما أخبرتكِ به مسبقًا: تمتلكين

أصابع ذكية.

ولا أعلم إلى أين تأخذني أصابعك! حسبي أنها النهاية المثلى لكل ما عندي.

قد قرأت كلّ ما كتبتِهِ لي، وأجد تشابهًا، يكاد أن يكون تطابقًا، بما أعرفه من تفاصيل هذه الحكاية، وما يجعلني أرجح أن ما أرسلتِ حقيقي هو أنك لم تطلعي على ما لدي كاملاً.

يقلقني فقط ما ستفعلينه بنصف الحكاية الآخر.

أعني هل الصواب أن نعيد صياغة الذكرى بقصةٍ مغايرة في عقل إنسانٍ ظنّ أن كل هذا العبث قد ولى وانتهى بحلوهِ ومرّه؟ أحيانًا ما تجهله أسوأ ممّا تعرفه، وبالتالي أنت ستفضل أن تبقى على سوء ما تدركه دون أن تثقله بسوء آخر.

اسألي نفسك يا سين: هذه العاشقة هل كانت تترقب سطرًا أخيرًا لحكايةٍ تعيد تجسيدها في خيالها كما تريد؟

وهنا قد أعني حبيبة مطر التي حدثت الشمس، أو أضرب بكلماتي أبوابًا أخرى:

هل هذه الحياة تستحق أكثر من جرحٍ واحد، ووجعٍ

واحد، وشقاءٍ واحد؟!

جاوبي!

حسنًا، يبدو أنيّ قد بينتُ لكِ رأيي جيّدًا في هذا الأمر، أعني مكاشفة عمتك بما غاب عنها.

سأكتب لكِ في كلّ يومٍ جزءًا مما كتبه مطر في دفتره. نعم، هذا ما كنت أعنيه حينما أخبرتكِ من ذي قبل أن لدي كنزا! / أوراق عاشقٍ في منفاه.

لكني أتساءل لِمَ أشاركك كل هذا؟ فهل أجد لديك جوابًا؟!)

***

فركت عينيّ وأنا أقرأ سطره الأخير، ثم أجبته برسالةٍ أخرى قبل أن أدير ظهري لهذا العالم وأغطّ في نومٍ طويل.

(لأنني أحببتك في يومٍ ما)

*

الفصل الثاني

السماءِ تبدو غائمة، الشمس تختبئ خلف سحابة دخان هائلة، سوداء اللون. أخبروني أنها ليست حقيقية وأن لا مطر سيهطل قريبًا، وأنها قد تبتلعنا جميعًا كما فعلت بالشمس.

الطيور قد فقدت قدرتها على الغناء والتحليق وأخاف أن أفقد قدرتي أيضًا على الثبات.

ألتفت يمني ولا أجد سوى وجوه حزينة، تبحث عمّا فقدته، عن أحباب ضائعين، عن أمل، عن حبّ أخير، وعن وطن لم يفرطوا به يومًا، لكنه يفلت منهم شيئًا فشيئًا!

وعن يساري بيوت تفقتد الطمأنينة، جدرانها باتت مهجورة دون رغبة، الصدى يدوي داخلها كصرخة استغاثة.

هل كنت في المكان الخطأ؟ أو الزمن الخطأ؟ أم أني في المكان الصحيح لقدري؟

قبل أسابيع معدودة كنت على موعد مع البهجة حينما خابرت صالح من كابينة هاتف مكتظة بالغرباء؛ فبشرني بانتهاء

هذا البؤس الذي أعيشه. أخبرني أنه يمكنني العودة الآن وأن لا يتوجب علي أن أغترب أكثر، وأنها ستكون لي.

ركضت بسعادة ناحية حسين، ضممتهُ وقبلتُ رأسه فرحًا، ولو أن أحدًا سأل عن أكثر الإنس سعادة في ذلك اليوم لقلتُ له أنا بثقةٍ تامة.

- راجعين يا حسين، راجعين.

كنا على أهبة الاستعداد للعودة، جمعنا حقائبنا منذ الليلة الأولى، وأصبحنا نضحك أكثر، نتحدث أكثر ونطلق المخيلة في أرض خصبة لبناء أحداث تروق لنا مع أول تحية وترحيب قد نلقاه هناك، في الحارة.

- لماذا ننتظر حتى السبت؟ يمكننا العودة الآن.

قال لي حسين.

- دعنا لا نتعجل، يريدنا صالح أن نعود في يوم السبت ليتم الزواج في ذات اليوم ونوقف انسياب هذا الحديث المسموم في الحارة كلها.

هزّ حسين رأسه موافقًا، وقال:

- مبروك يا عريس.

وكم أتمنى الآن أنه لم يوافق!

***

كان يجدر بي ألا أترك قلبي يسعد كثيرًا، كان عليّ أن أترك مساحة لكل مالا أتوقع حدوثه، مثل ما أعلم أن الفرصة واردة لحدوث كل شيء سيء الآن، وأن هذا الشقاء قد يطول ولا ينتهي.

حينما تترك قلبك يعيش ما يتمناه من شعور فقط؛ فإنك تضعه أمام زناد الموت عندما يأتي القضاء بما لا يشتهي.

وإن كنتُ سأصبح حكيمًا الآن وأنا أكتب كل هذه الفوضى، فإني أخبرك بشيء واحد: احذر الليلة التي تنام فيها سعيدًا!

لا بأس بكل ما حدث. بسحابة الدخان هذه، بالحرائق التي تشتعل بلا سبب، بصوت الرصاص المنطلق نحو هدف لا ذنب له، بالصراخ والنحيب، بالشجاعة التي يدونها التاريخ وينسى أن يقرأها أجيال المستقبل.

ما يهمني هو النهاية. الستار الذي سيمحو هذه الصورة من

عينيّ وإن بقيت في ذاكرتي عمرًا طويلًا.

هل سيكون لي عمر طويل؟ الله وحده يعلم.

مع هذا الصباح يكتمل الشهر الرابع منذ أن بدأت هذه الحرب. وأجدني لا أحتمل حالة الصمت التي تأكل لساني وتخنق صدري، وقد أخبرتني إحداهنّ أن قلمًا وورقاً قد يتكفلون بما لا أقوى على قوله. وها أنا أخوض هذه التجربة.

***

يا من يقرأ أوراقي الآن، أنا لا أعرفك، وأنت قد تعرفني أو تجهلني، ولكني أطلب منك شيئًا واحدًا فقط، في حال أنك وجدت دفتري هذا و لم تعرف مكاني، أن تسعى لأن يصل لتلك الواحدة التي لن يفهم كلماتي غيرها، والتي لم أكتب يومًا لسواها.

لها عينان تختطفان الحزن وتغربله حتى يغدو فرحًا إن نظرت إليها. إن لوحت بكفها رأيت علامة جمال استقرت عليها، وإن تحدثت أدركت أن لا أحد يستحق أن يقرأ كلّ هذا ما عداها. شقية كأنها خلقت لتختزل متعة الدنيا في مشاكستها، وودودةٌ كزهرة تنحني لتحيّيك كلما عبرت بجانبها.

وضعت لك عنوانها على دفة الدفتر الأمامية.

أرجوك أخبرها أني كتبت لها، وأني أحبّها.

*

عزيزتي،

لقد أصبحت لي حكاية تجهلينها، ولأني لا أحبّ أن يكون لي شيء لستِ به؛ فإني أكتبها لكِ.

أريد أن أخبرك عن سالم، غريب التقيت به هنا، وأصبح يومًا بعد يوم كأخٍ أجهل وجوده في هذه الحياة. له بشرة صافية كسماء يومٍ ربيعي، ملامحه شديدة الوضوح ككلامه الذي يكتسي بنبرة البدو، عندما يسامرني يعرف جيّدًا كيف يصطاد أحزاني ويغلبها لأضحك، وحين يغيب أتوقف عن الحديث.

أصبح حسين يبغضه لأنه يأخذني من صحبته كما يقول.

- هالولد بيفرقنا. لا تنسى أني تركت كل شيء وجئت معك، لأجلك، لأنك صاحبي الوحيد.

قال لي حسين معاتبًا ذات مرة.

- لا أحد يأخذني من صحبتك، ولا أحد يحلّ مكانك. أنت حسين، الأخ والصاحب والعزيز في القلب.

ابستم راضيًا.

- يلا قوم. بدأ الحديث ينحني لوجهة مشكوك بغايتها.

فضحك.

يبدو أن هناك نوعًا من الغيرة التي كنت أجهله، غيرة الأصدقاء عندما يشعرون بأن هناك من يسرق مكانهم في قلوب من يودون.

وجدنا سالم ذات يوم ونحن نحاول التخفي عن أنظار الجنود الذين داهموا العمارة التي نقطنها. كانوا يبحثون عن أي شيء يثير ريبتهم ليقوموا بما يحبون فعله. سمعنا صوت سيارتهم تتوقف عند باب العمارة، وصوت رصاصهم الذي كان يبث الرعب. لم نعرف ماذا نفعل، قلت لحسين أنه يجدر بنا البقاء هنا، لن يفعلوا لنا شيئًا إن لم يجدوا لدينا ما يثير الريبة. عارضني قائلًا:

- لا يحتاجون أي شيء ليعتقلونا، يكفيهم أننا لسنا من أهل هذه الأرض، ببساطة سيقولون "جواسيس".

فتح حسين باب الشقة، تلفت يمينًا وشمالًا قبل أن يقول:

- الحقني.

عبرنا الممر المؤدي إلى سلالم الطوارئ والتي ثبتت على الركن الخلفي للعمارة. كنّا نداري أصوات خطواتنا لئلا تجذب انتباه الجنود المنشغلين باقتحام الأبواب، بابًا بعد باب. نظر حسين إلى الباحة الخلفية فلم يجد أحدًا هناك.

- تعال، ما في أحد هنا.

نزلنا سريعًا بخطوات خائفة وحائرة. حين وصلنا للطابق الأرضي كان صوت الجنود يقترب أكثر وأكثر. أصبحنا في وضع أشد ريبة وخطر، لا يمكننا الذهاب إلى أي مكان، إن توجهنا للبوابة الأمامية فسلامٌ علينا إلى يوم يبعثون، وإن بقينا أعطيناهم سببًا مقنعًا لأسرنا.

جثا حسين على ركبتيه وبسط ظهره وهو ينظر إليّ قائلًا:

- تسلق واقفز خلف هذا الجدار.

تلكأت مكاني. خفت أن أنجو وحدي، وأتركه هنا يواجه كل شيء أخذته بنفسي إليه.

- هيّا، ليس لدينا وقت للتفكر.

وضعت قدمي فوق ظهره ومددت يدي إلى حافة الجدار،

وحين أدركت أن لا قوة لي بحمل نفسي للجهة الأخرى، ثنى حسين جسده ثم وقف حاملني فوقه. بسرعة شددت جسدي وتسلقت الجدار.

- عطني يدك.

قلت لحسين.

نظر إليّ مبتسمًا وهو يمد يده نحوي. شددته بقوة حتى وضع يديه على الحافة. وكم كان قويًا وهو يرفع جسده برشاقة وخفة.

أدرنا وجوهنا للخلف فوجدنا منزلًا مظلمًا بدت عليه آثار الهجر. قفزنا بسرعة إلى باحته فالتوت قدم حسين جراء هذا الهبوط الاضطراري، كبح ألمه وصرخته. أسندته على كتفي وسحبته معي. قطعنا الحوش الجانبي للمنزل حتى وصلنا إلى بوابته الأمامية. فتحناه بهدوء وطللتُ برأسي أتبين خلو الشارع من الجنود.

استدرت نحو حسين لأخبره بأنه يمكننا الخروج بأمان، لكنني وجدته يحدق في ظل ذلك الرجل الواقف خلفنا مصوبًا بندقيته نحونا وهو يصلب سبابته على شفتيه محذرًا من أي صوت يخرج منّا.

***

- من أنتم؟

- اسمي مطر، وهذا صاحبي حسين.

أجبته.

- ما الذي جاء بكم في بيتنا؟

صمتُ وأنا أحدق في حسين الذي انشغل بقدمه. أحسّ بورطتي، فتحدث هو وأخبر هذا الرجل قصتنا.

- وكيف لي أن أعرف أننا لن نلقى شراً منكم؟

- انظر إلى حالنا وستعرف الإجابة التي تريدها.

قال له حسين.

تركنا الرجل وحيدين في مجلس المنزل الذي دخلناه خوفًا من بندقيته واتباعًا لأوامره.

بعد دقائق معدودة عاد يحمل كيسًا بلاستيكيًا وضع فيه مكعبات ثلج وأعطاه لحسين.

- ضعها على قدمك. ستخفف الألم قليلًا.

ثم أردف وهو يخرج سيجارة رخيصة، بنية اللون، كنت قد اعتدت على أن أرى بعض العمالة يبتاعونها:

- إن كنتم كما قلتم لي، فيمكنكم المكوث هنا هذه الليلة، ولنصلي لئلا يفاجئنا الجنود باقتحامهم للمنزل. هؤلاء لا يعرفون حرمة بيت ولا حرمة دم.

شكرناه بدعوات طيبة.

- عيال الحلال كثار يا مطر.

قال لي حسين.

أخذ نفسًا طويلًا من سيجارته قبل أن يقول:

- لا تخرجوا من هنا. لدي نساء في المنزل، سأحضر لكم فرشًا لتناموا عليها، إن احتجتم شيئًا فاطرقوا الباب وانتظروني. تذكروا هذا بيت ناس محترمين. بالمناسبة، اسمي سالم.

وتصافحنا.

***

حين حلّ الصباح جاء سالم حاملًا صينيةً عليها أطباق متعددة وفي فمهِ سيجارة مشتعلة.

- جايعين؟

*

غاليتي،

هكذا عرفت سالم، شهم ونبيل، دمث الأخلاق وطيب القولِ والقلب. لم يرضَ أن نغادر بيته في صباح اليوم التالي. أخبرنا أننا لسنا غرباء وأن هذا البيت بيتنا ما دمنا نحترم حرمته وأهله. أصبح لنا سندًا وملجأً.

في وقت الشدّة يظهر الرجال، كما يقولون.

يومًا بعد يوم أصبحنا قريبين منه، يستأمننا على منزله حين يغيب، وغيابه يطول أحيانًا كثيرة. سألته ذات مرة عمّا يفعله وأجابني:

- يجب على شباب الوطن أن يقاوموا، إن اختبأنا في بيوتنا فلن يعود لنا وطن. المقاومة تحتشد من كل فجٍ وصوب، رجالًا ونساء، نخرج يومًا في مظاهرة واحتجاج، واليوم الآخر نقاوم بالسلاح على كل من يعتدي على بيوتنا.

الطبيب يقاوم بمدواة المرضى، الصحفي يجاهد بكتابة أخبارنا وإيصالها للعالم الجاهل بأوضاعنا هنا، الفنان ينتصر لنا بأغنية تبث الحماسة والقوة في قلوبنا، والعاجز يدعمنا بدعواته. لن يدوم الأمر طويلاً حتى يخرج هذا العدو من أرضنا إن سرنا على هذا النحو.

- ألا تخاف ألا تعود يومًا؟

سأله حسين.

- بل أخاف ألا يعود وطني.

حديثه أجج قوةً في قلبي يا غاليتي، لم أعرف كيف أعود لكِ، ولا أعلم ماذا تبقى لي هنا، والآن تتراءى لي الحكمة من كل هذا القدر الذي أصابني، سأقاوم.

- خذنا معك.

قلت لسالم. وافقني الرأي حسين.

- نعم خذنا معك. دعنا نفعل شيئًا آخر غير هذا الاختباء المتعب، إن متنا سنكون أبطالًا، وإن ظللنا على هذه الحياة فلن نخسر شيئًا.

قلّب سالم نظره فينا قبل أن يقول:

- المسألة ليست بهذه السهولة، الكلمة التي قد تقولها الآن من دافع حماسة قد تتراجع عنها حين تواجه الخطر الذي كنت تتجنبه. ما يثبّتك هو إيمانك بأن ما تخسره وما تكسبه ليس لك، بل لتحقق ما آمنت به.

*

غاليتي،

هكذا عرفت سالم، شهم ونبيل، دمث الأخلاق وطيب القولِ والقلب. لم يرضَ أن نغادر بيته في صباح اليوم التالي. أخبرنا أننا لسنا غرباء وأن هذا البيت بيتنا ما دمنا نحترم حرمته وأهله. أصبح لنا سندًا وملجأً.

في وقت الشدّة يظهر الرجال، كما يقولون.

يومًا بعد يوم أصبحنا قريبين منه، يستأمننا على منزله حين يغيبُ، وغيابه يطول أحيانًا كثيرة. سألته ذات مرة عمّا يفعله وأجابني:

- يجب على شباب الوطن أن يقاوموا، إن اختبأنا في بيوتنا فلن يعود لنا وطن. المقاومة تحتشد من كل فجٍ وصوب، رجالًا ونساء، نخرج يومًا في مظاهرة واحتجاج، واليوم الآخر نقاوم بالسلاح على كل من يعتدي على بيوتنا. الطبيب يقاوم بمدواة المرضى، الصحفي يجاهد بكتابة

أخبارنا وإيصالها للعالم الجاهل بأوضاعنا هنا، الفنان ينتصر لنا بأغنية تبث الحماسة والقوة في قلوبنا، والعاجز يدعمنا بدعواته. لن يدوم الأمر طويلاً حتى يخرج هذا العدو من أرضنا إن سرنا على هذا النحو.

- ألا تخاف ألا تعود يومًا؟

سأله حسين.

- بل أخاف ألا يعود وطني.

حديثه أجج قوةً في قلبي يا غاليتي، لم أعرف كيف أعود لكِ، ولا أعلم ماذا تبقى لي هنُا، والآن تتراءى لي الحكمة من كل هذا القدر الذي أصابني، سأقاوم.

- خذنا معك.

قلت لسالم. وافقني الرأي حسين.

- نعم خذنا معك. دعنا نفعل شيئًا آخر غير هذا الاختباء المتعب، إن متنا سنكون أبطالًا، وإن ظللنا على هذه الحياة فلن نخسر شيئًا.

قلّب سالم نظره فينا قبل أن يقول:

- المسألة ليست بهذه السهولة، الكلمة التي قد تقولها الآن من دافع حماسة قد تتراجع عنها حين تواجه الخطر الذي كنت تتجنبه. ما يثبّتك هو إيمانك بأن ما تخسره وما تكسبه ليس لك، بل لتحقق ما آمنت به.

***

عزيزتي،

يبدو أني رحتُ أركض وأسابق الزمن لأحكي لكِ ما حدث لي، ونسيتُ أن أكتب إليكِ ما أردتِ مني دومًا كتابته، هذا الحبّ في قلبي.

لقد كنتِ تنبثقين في رأسي كل ليلة كحلمٍ لأجله أثبُت وأزداد تمنعًا أمام كل صفعة بُعد وكل ريح حنين تلفحني ببردها دون أن أجد وشاحك ليدثرني ويدفئني.

ماذا حلّ بكِ يا غاليتي؟ كيف هي أيامكِ الماضية دوني، كيف هي أحلامكِ، ألازلتِ تنتظريني؟ أم أنكِ خرتِ في مواجهة الشقاء؟ هل تكبرين لحظة بلحظة؟ أم أنكِ كما أنا تعبرني الأيام ببطء و تأخذ مني سنينًا من الحياة؟

عندما أرسم صورةً لمستقبلي لا أستطيع أن أبدأها بشيء آخر سوى أني معكِ. تخيّل لي الأيام الجميلة التي ستأتي، ياقة ثوبي التي تحكمين إغلاقها بأصابعكِ الناعمة كلما هممتُ بالخروج، رائحة

عنقكِ التي عليها أريدُ أن أغفو، أغانينا التي سنغنيها سويًا، وذكرى كل اللقاءات السابقة التي ستعيدنا دائمًا ممتلئين بالحبّ.

أشتاق لأن تلفحني الرياح بسمومها وأنا أنتظركِ على قارعة الطريق، لشارع غرام وعشاقه، للحارة كلها، لغناء أمي، لصوت طلال يعبر غرف المنزل ويملؤها بالدفء، لدندنة عيسى وعودهِ، لمكتبة عبدالكريم والكتب التي أسرقها لأجلكِ، لقن الدجاج والمزرعة، وقد أبدو كاذبًا إن قلت أني أشتاق لأبي مرزوق ودكانه.

هل كان ينقصنا هذا الألم لنثبت للعالم أن يمكن للحبّ أن يصمد طويلًا؟

ما أخافه الآن أنيّ قد لا أعود، أن تبقي وحيدةً تدارين وجعك وتكتبين لي رسائل أتجاوز سطورها فقط لأقرأ في خاتمتها "أحبّك".

يقول لي حسين حينما يراني أكتب أن ما أفعله لا يتعدى كونه عبثًا ، وأني أصبحت أضع في نفسي مالا ينتمي إليّ/ الكلمات.

دعوته لأن يخوض معي فيما أفعله، إلا أنه امتنع ودّس رأسه

في وسادته. لم تتغير عادته، لازال يرفض أي أمرٍ يلهيه عن ليلة الخميس، لكن الأرق يصيبه، يشرع أبواب عقله حتى يحلّ صباح اليوم التالي. منذ أن جئنا هنا لم تزره زهراء حلمًا واحدًا. ذات ليلة، خار في بكاءٍ عميق.

أنا أيضًا لا أحلم بكِ؛ لذا أكتب إليكِ وأضع أحلامي معكِ بين هذه السطور. هل ستتحق؟

لم يسؤني أن لا أحد جاء ليخرجني مما أنا فيه، لكني أخاف أن أصبح منسيًا لدى كل ما أشتاق إليه.

بجانبي مذياعٌ ثبّتتُ موجته على برنامجٍ يبث رسائل المهاجرين لكل من بقي في هذا الوطن يناضل ويكافح. أبحث في أثيره عن صوتٍ أعرفه، عن كلمةٍ تصبرني، عن أمل بأني لازلتُ حاضرًا في قلب أحدهم. تبدأ الرسائل الصوتية بالتدفق واحدة تلو الأخرى حتى تنتهي، ويبقى قلبي جافاً كحجر لم يعرف سماءً تمطر.

لا يهّم هذا الآن.

إنيّ أحبّكِ.

*

يومٌ قائظٌ آخر، عنوانه الكآبة، حرارته تكوي الوجوه وتسربلها بالعرق. كنت أقف على رصيف المنزل أنظر للعابرين، لكن لم ينظر لي أحد، الكل مشغول بما فيه ولا يبالون بهذا الغريب الذي يتسكع على أرصفة الحارة.

على جانب الباب شجرة صغيرة أغصانها جافة لكنها لا زالت تحاول الصمود مع الجميع. دلفت للداخل وملأتُ دلوًا بالماء، ثم عدت وسكبتهُ فوقها وأنا أحدثها:

- لا بأس، سأعتني بكِ.

سمعت حسين يقول آنذاك، وهو يقرفص:

- أجن الولد.

بعد دقائق قليلة ظهرت سيارة سالم مسرعة في بداية الشارع. أصدرت عجلاتها ضجيجًا وهو يتوقف أمامنا. نزل بسرعة وهو يصرخ بنا:

- تعالوا ساعدوني.

فتح الباب الخلفي وسحب ذاك الجسد المستلقي. هرعنا لمساعدته، حملناه معًا وأدخلناه للمجلس حيث أستقر أنا وحسين.

كان شابًا يافعًا لم يتجاوز عقده الثاني، ساقه تنزف دمًا، ورغم هذا لم يتوانَ عن الابتسام في وجوهنا. وضعناه على الأريكة، بينما اختفى سالم لبرهة ثم عاد برفقة زوجته. كانت المرة الأولى التي نرى فيها زوجته. عباءتها فضفاضة تغطي جسدها، محجبة يبرز وجهها المضيء بين سواد حجابها. أطرقنا رؤوسنا خجلًا من دخولها المفاجئ. كانت تحمل حقيبة إسعافات أولية، دنت وجلست بقرب المصاب، خطفت نظرة سريعة لمكان النزف ثم قالت لنا وهي تتفحص حقيبتها:

- ثبتوا ساقه.

اقترب سالم وأحكم قبضته على ساقه.

كان يئن ويصرخ كلما وضعت الملقط في جرحه. بعد سويعات خرجت رصاصة كانت في ساقه ومعها سالت دماء غزيرة.

- لا بأس، سنعتني بك.

قال حسين وهو يمسح جبينه بكفهِ.

قطبت زوجة سالم جرحه، ومن ثم جمعت ما تبعثر من الحقيبة

ودلفت لداخل المنزل.

سكن المصاب وغط في نوم مفاجئ.

- ماذا حدث؟

سألت سالم، تأفف وهو يخرج سيجارة من جيبه، أشعلها ونفث نفسًا طويلًا منها، ثم أجاب:

- كنّا في منزل أحد أعضاء المقاومة، نتباحث ونخطط عمّا يمكننا أن نعطيه للناس الذين انقطعت عنهم أبسط حوائجهم. حينها اتصل بنا شخص نثق به، وأخبرنا أن قوة عسكرية قادمة نحونا، أحدهم أخبرهم عنّا. خرجنا من المنزل سريعًا، لكنهم كانوا قد أدركونا. ركبت سيارتي على عجل، وقبل أن أسير بها سمعت صوت الرصاص قادمًا من الخلف. نظرت عبر المرآة الجانبية، فوجدت "جاسم" ملقى على الأرض، أصابوه في ساقه برصاصهم العشوائي. ترجلت وسحبته من مكانه قبل أن ينالوا منه. حمدًا لله أنني أضعتهم في الطريق إلى هنا. لا أعرف ماذا يتوجب عليّ فعله الآن. يقطن سالم مع

والديه وإخوته الأربعة، لابد أنهم سيبحثون عنه الآن.

- دعه يبيت هنا هذه الليلة، وإن تحسنت صحته أخذناه إلى عائلته غدًا.

قلت لسالم ثم أردفت:

- أريد أن أسألك. كيف زوجتك عالجته؟ أعني هل هي طبيبة؟

قطب حاجبيه وهو ينفخ الدخان من فمه، ثم قال:

- كانت زوجتي تدرس الطبّ قبل أن أتزوجها. أتمّت أربع سنوات من الدراسة، لكني منعتها من المواصلة في هذا المجال. كنت أرى أنه اختلاط غير مبرر، وأن هناك الكثير من الأطباء، أما الطبيبات فالأجنبيات يسدون الحاجة. هل تعرف يا مطر، اليوم فقط أدركت أني كنتُ مخطئًا في هذا. وللأسف أنك لا تدرك أخطاءك حتى يفوت الآوان.

*

عزيزتي،

لدي أخبار سعيدة هذه المرة.

بعد بضعة أسابيع من لقائنا الأول بجاسم، عاد اليوم ليتفقد أحوالنا ويشكرنا على اهتمامنا به. كان وجهه مبتسمًا طوال الوقت.

قال لنا:

- أخبرني سالم بقصتكم، أنتم شجعان حقًا لبقائكم هنا. ولكن لا تقلقوا كثيرًا، إن أردتم الرجوع إلى وطنكم فيمكنني تدبير وسيلة توصيل لكما.

نظرت إلى حسين في تعجبٍ وفرح. سأله حسين عمّا يقصده من كلامه.

- أعرف شخصًا يمكننا الوثوق به ليعبر بكما الحدود. هو لن يفعل هذا بلا مقابل، ولكني وسالم سنتكفل بهذا، لا تقلقوا. فقط أخبروني إن كنتم مستعدين.

- مستعدين.

أجبناه بصوتٍ واحدٍ سعيد.

- لكن أنتم تعرفون أن لكل طريق مخاطره. لن تكون نزهة بريئة سعيدة، بل رحلة مليئة بالمخاطر.

قال لنا سالم. أجابه حسين مكررًا:

- مستعدين.

*

غاليتي،

يساورني التفاؤل بأن سيكون لنا لقاء آخر.

هكذا أظن، لأول مرة أشعر بأن هناك طريق للخلاص من كل هذا، وأنني سأعود لكِ ولكل ما تركته خلفي ونسيني.

في رأسي أشياء كثيرة أريد فعلها حينما أعود، أهمها أني أريد أن أعيش كل يومٍ بفرحهِ وحزنه، أريد أن أغلب هذه الحياة التي تحاول خنقي، كلما أحكمت قبضتها على عنقي سأبتسم وأدع لها خسرة الفشل. أريد أن أضحك أكثر، معكِ، وأن أكتب أكثر، إليكِ، وأن أفتح نوافذ قلبي دون خوف.

كم مضى يا غاليتي؟

سبعة شهور بعيدًا عنكِ، وأنا من أخبرتكِ ذات مرة أن يومًا واحد دونكِ أغدو وقحًا إن ابتسمت فيه.

حسنًا، ظني أن كل هذا في طريقه إلى نهايته.

الاتفاق تم مع السائق الذي سيقلنا. المبلغ دُفِع كما أخبرني

سالم، وأجهل قيمته. الموعد حددّ، بعد ثلاثة أيام من الآن. لم يتبقَ سوى أن أحزم قلبي بكل حنينه.

تلفني سعادة غامرة لا أعرف منبعها رغم ما أنا مقبلٌ عليه قد يكون أعظم وأشد مما قطعته، حسبي أنيّ سأنام بسعادتي هذه.

وإلى أن يحين موعدنا، وعناقنا، وبكاؤنا، ورقصنا ....

أحبّك.

الفصل الثالث

سين

رسالة صادرة:

(ثم ماذا؟ إلى هنا تنتهي حكاية مطر؟ حتى الآن لم أعرف ماذا جرى له، عمتي أيضًا لا تعرف شيئًا غير الذي يعرفه الجميع، وبالرغم أنها تنكره وتنتظر، إلا أن أحدهم يعرف جيّدًا كل تلك التفاصيل الغائبة) .

إبراهيم

رسالة واردة:

(لم تنتهِ الحكاية ....)

***

كان يسير وحيدًا في شوارع حارته التي هجرها منذ أعوامٍ طويلة، لم يكْن بحاجةٍ لأحدٍ يشرح له ملامح الحارة الجديدة وتقاسيمها، كلما تاه توقف لبرهة وقلّب بصره في نوافذ البيوت المصطفة، يبحث عن بيتٍ لا يزال على هيئته الأولى، تلك التي لاتزال في ذاكرته، وحين يجده يكمل مسيره. ظلّ يحوم في الحارة لساعات عديدة، حتى وصل لشارعٍ ينتهي بهضبةٍ ترابية لم يجد أهل الحارة نفعًا من إزالتها. استنكر عليه أهل الحارة تسكعه هذا؛ فاقترب منه أحد الرجال ليسأله عما يبحث عنه هنا، لكنه لم يعر له اهتمامًا. ظلّ في ذلك الشارع ولم يتحرك منه، عيناه كانتا مصوبتين نحو نهايته حيث يتفرع الطريق لجهتين مختلفتين من الحارة. وكأنه يتساءل أي الطرق يجدر به أن يسلك. حين تلونت السماء بشفقها الأحمر كان قد اختفى. سرعان ما عاد في اليوم التالي، لم يفعل شيئًا سوى انتظاره على طرف ذلك الشارع، تمامًا كما حدث في أولى زياراته، كرر المجيء والذهاب لعدة أيام حتى تجمع

الرجال بالقرب منه ليضعوا حدًّا لهذا الغريب المتطفل. كلما حدثوه لا يجيب عليهم، حتى عزموا على طرده بالقوة. أمسكه رجلٌ من يافطة ثوبه مهددًا إياه بالضرب إن لم يكف عن قدومه، تعالت أصوات الرجال مهددةً إياه أيضًا. وقبل أن يشرع في لكمه أحد، شق شيخٌ كبير صفوف المتجمعين. كانت تبدو عليه الهيبة إذ إن جميع الرجال تراجعوا ليفسحوا له مجال العبور بينهم. نظر الشيخ لوجه هذا الرجل الغريب، سأله:

- ماذا تريد؟

لم يجبه أيضًا.

أمعن كلٌّ منها في النظر إلى وجه الآخر، كما لو أنهم يبحثون عن شيء خفيٍّ بين ملامحهم. وحين بدأت الريبة تأكل بقية الرجال الواقفين بانتظار نهاية لهذا العبث، نطق الرجل الغريب قائلًا للشيخ:

- ما عرفتني يا صالح؟

جمد الشيخ مكانه. ظهرت عليه الدهشة والخوف معًا.

- حسين! أنت حسين!

قال له الشيخ.

هزّ رأسه مؤكدًا شكوك الشيخ صالح.

ضمّه إلى صدره مرحبًا ثم راح يطالع وجهه وملامحه بينما تفرق الرجال من جانبهم وهم لايزالون في حيرة وتوجس من هذا الغريب.

رافق الغريب، حسين، الشيخ صالح لمنزله. كان يعرف كل شارعٍ يقطعونه، وحين وصلوا للمنزل القديم، الذي لم يتغير منه سوى لون طلائه وبدل بابه إلى بابٍ حديديٍ آخر مزركش بعلامات المعمار الحديث، توقف حسين في مكانه، سأله الشيخ عن سبب وقوفه المفاجئ فأجابه:

- طلال .. صوت طلال لا أسمعه.

- الله يرحم طلال وإلي كانت تحبّ تسمع صوته.

قال له الشيخ وهو يقبض على يده ليدخله.

في مجلس المنزل جلسا القرفصاء متقابلين، لم تهدأ ترحيبات الشيخ بحسين، بينما حسين كان هادئًا لا ينبس ببنت شفة. بعدما قدم الشيخ ضيافته لحسين، بدأ يحكي له:

- بحثت عنك كثيرًا يا حسين، لم أترك مكانًا إلا وقد

قصدته، كنت الأمل الأخير لكل ما مررنا به. كنت البرهان لشكوكنا. كم عامًا مضى؟ اثنا عشر؟ الله .. عمر والله عمر.

حين ذهبت للكويت على أمل أن أجدكما، أنت ومطر، لم ألقَ سوى قبرٍ قال لي أحدهم بأن مطر يسكن في جوفه. لم أصدقه، كان كلامه بمثابة صفعةٍ لا أقوى على تحملها، سألته أن يبرهن لي ما يدعيه فأخذني إلى منزلٍ قال أنكما كنتما تقيمان فيه وعن علاقته بكما قال أنه قد وعدكم على أن يقلكم ويخرجكم إلى ما بعد الحدود حيث يمكنكما العودة إلينا. ترجلت ورحت أضرب باب المنزل بما تبقى بي من قوة، لكن لا أحد أجابني. كان خاليًا وبدت على جدرانه آثار رصاص لم يتجرأ أحد على إزالتها. سألته عنك إلا أنه لم يعرف لك مكانًا. وحين أحس بيأسي سألني أن أمكث الليلة هنا على أن يجلب لي من يعطيني الخلاص من حيرتي.

قضيت تلك الليلة في عزلة روحية، أتفكر بكل ما حدث لمطر، ونفسي تؤنبني وتشقيني.

في صباح اليوم التالي، جاء السائق برفقة شخصٍ آخر، سالم

.. كان اسمه سالم إن لم تخني الذاكرة. صافحني ببرود قبل أن يجلس بجانبي ويسألني عن سبب قدومي وبحثي عن مطر. أخبرته بكل شيء، وحين علم أني أخوه الأكبر قال لي:

كان ينتظر أحدًا ليتذكره ويأتي ليأخذه من هذا المكان. انتظر كثيرًا حتى رضي بحاله. صديقي سالم كان قد استضافه في بيته، هو وصاحبه حسين، لمدة ليست بقصيرة. وحده سالم من يعرف مطر جيّدًا، لكنه اختفى الآن ولا أعلم أين أجده. ما يهمك معرفته هو ماذا حدث لمطر، أليس كذلك؟

اتفقت مع سالم على أن نؤمن وسيلةً لهما تعبر بهما الحدود، عن طريق التهريب، أنت تعرف أن الحدود كانت مغلقة حينها، ولا أحد يستطيع الفرار والخروج بسهولة. وفي اليوم المحدد كان الجميع على استعداد. خرج سالم برفقة حسين ليلتقيا السائق، بينما ظل مطر في المنزل لئلا تكون عائلة سالم بلا حراسة إلى أن يقله السائق برفقة حسين.

لكن ما كنا نخافه حدث.

دورية عسكرية غارت على المنزل سعيًا في الوصول إلى سالم

الذي كان أحد أفراد المقاومة. خرج لهم مطر فظنوا أنه سالم. حاولوا أن يأخذوه معهم لكنه قاومهم وصار يضربهم بكل قوته حسب ما أخبرتنا به زوجة سالم. هي بدورها حاولت أن تخبرهم أنه ليس من يريدونه، إلا أنه في كل مرة يسألونه عن اسمه يقول لهم: أنا سالم.

انتابهم الشك مما يقوله ومما تخبرهم به الزوجة. حتى تحدث كبيرهم قائلًا وهو يخرج سلاحه ويصوبه ناحية مطر:

- إن كنت سالم فأنت ميت، وإن لم تكن سالم فأنت كاذب، والكاذب مصيره الموت.

نظر إليه مطر بعينين صارمتين لا تخشى شيئًا ، قائلًا:

- أنا سالم.

عاد الجنود لمركبتهم وانطلقوا مبتعدين بعدما خلفوا وراءهم رصاصًا مبعثرًا ودماً ينزف من صدر مطر ليروي الشجرة الصغيرة التي بالقرب من جسده.

كان بطلًا. مات بطلًا.

***

كان حسين يستمع لكلام الشيخ صالح بوجهٍ يخلو من التعابير. إنها حكايته كما هي حكاية مطر. لقد أحبّ مطر حتى شاركه أجمل مراحل حياته وأتعسها. كانوا ينتظرون الحبّ في ذات الشارع الذي عبره بقلب خالٍ حينما عاد للحارة، تكاتفوا في الحياة كما لو أنهم إخوة حقيقيون وأخبروا العالم بأسره أن الأخوة لا تكون بالدم فقط، وعاشوا مغامرتهم بقلوبٍ تخاف على بعضها البعض، بإخاءٍ وإيثار.

صورٌ وذكرى سنين طويلة عبرت رأس حسين في ثوانٍ حتى أصبح يغالب دمعته التي تحمل حزن قبيلةٍ كاملة. صراخه حين عاد ليجد نفسه في موعدٍ مع قدرٍ لم يتسنَّ له الاستعداد للقياه، غصته، دمعته، كفهُ التي مسح بها على جبين مطر كوداعٍ أخير ولازال يشعر بالدفء فيها منذ ذلك الحين.

سكت الشيخ وأخذ ينتظر حسين لينطق.

مسح حسين عينيه بشماغه وهو يقول:

- أنت تعرف الحكاية كاملة إذًا، لا جديد عندي لأضيفه عليها سوى أن الحياة غربلتني بعد كل ما جرى. يا

صالح، ما تمنيت أن أعود يومًا من دونهِ، ولو خيرت لما تملصتُ من أن أشاركه القدر ذاته. كلّ ما كنا نريده هو وقت إضافي لنحصل على نهاية أفضل كما ظننّا، لكن الوقت يخونك حينما لا تحسن معاملته، يصفعك بما كنت تخشى قدومه، ويقلب موازين حياتك في ثوانٍ قليلة.

توقف عن الحديث لثوانٍ ثم أردف:

- لم يتبقَ سوى شيء واحد، ووحده أعادني لهذه الحارة علني أجد ما كنتُ أبحث عنه، لكني لم ألقَ سوى ضياعٍ جديد.

- وماهو؟ أخبرني قد أستطيع مساعدتك.

سأله الشيخ صالح.

- دلني عليها.

وأخرج من جيبه دفترًا صغيرًا.

- هذه أمانة مطر الأخيرة .. إليها.

عمّ الصمت بينهما. فرك الشيخ لحيته الكثة وهو يخبره:

- علمي علمك يا حسين. لا أعرف أين هي. بعدما شاع

خبر رحيل مطر اختفت هي وأخوها من الحارة، لم يبقَ هنا سوى والديها، وهم بجوار ربهم الآن، ولم أتجرأ أن أسأل عن مكانها منذ ذلك الحين. ميتة .. حية .. الله وحده يعلم يا حسين. إن أحببت أعطني إياها وأنا سأبذل جهدي على أن تصل إليها.

تردّد حسين في تسليم هذه الأمانة للشيخ. حملها معه لمدةٍ كافية بأن ترهقه كلما رآها، ويدرك الآن أنه لن يقوى وحده على أن يسلمها لوجهتها.

- في ذمتك يا صالح. هي في ذمتك الآن.

قال له حسين وهو يمدّها إليه.

خرج حسين من منزل الشيخ، اختفى بين شوارع الحارة وصوتٌ يردد في داخله: سأفتقدك.

لم يره أحد بعد تلك الليلة، ولم يجرؤ أحد على أن يسأل الشيخ عن هوية الغريب الذي دخل حارتهم ثم ابتعلته الظلال.

أما صالح؛ فقد كان يدرك أن نبشه عن ماضٍ لم يرغب بأن يكون جزءًا منه قد يشقيه ويحمله فوق ما حمله من تأنيب ضمير.

أراد أن يقرأ ما كتب في هذا الدفتر إلا أنه تراجع سريعًا، واكتفى بأن يخبئه بين أكوام الكتب المصطفة فوق رفوف مكتبته.

*

في زيارة شابٍ لمنزل خاله، جذبت عينيه المكتبة التي بدا أن غبارًا تراكم فوق كتبها جراء هجرها الطويل. اقترب منها وأخذ يبحث عن كتابٍ يغذي شغفه للحياة. تصفح عدة كتب حتى سقط دفترٌ صغير من بينها. مسح على دفته الأمامية فوجد عنوانًا لا يبعد كثيرًا عن منزل خاله، إلا أن لا اسم للمتلقي قد كتب عليه.

ألقى نظرةً سريعةً لما في داخله؛ فأدرك أنه قد وجد حياةً أخرى بين سطوره.

بخفةٍ دسّه في جيبه

وخرج من المنزل بلا وداع.

*

سين وساعي البريد

بعد عدة أيام خابرني ساعي بريد يطلب عنواني لكي يوصل لي طردًا جاء من المنطقة الشرقية. أعطيته ما طلبه وانتظرت.

قبل أن تغيب الشمس رنّ هاتفي، كان هو نفسه ساعي البريد يطلب مني الخروج لاستلام الطرد. على عجلٍ وضعت عباءتي فوق كتفي ولففت حجابي فوق رأسي.

فتحت الباب فوجدته منتظرًا في سيارته. ترجل ومشى نحوي. كان يعتمر قبعةً سوداء، ويضع فوق عينيهِ نظارةً شمسية. سلمني الطرد وطلب مني أن أوقع على ورقة الاستلام. نظراته إليّ أساءتني، وقعت بخطوط عشوائية ورميت الورقة عليه وأنا أصفع بالباب أمامه.

***

مشهد أخير لحكاية مطر

حين فتحت سين الطرد، وجدت دفتر مطر في باطنه. شعورٌ غريب انتابها، لم يخطر ببالها أنه يعبر كفيها كما عبر أشخاصًا كثيرين فقط ليستقر في أحضان امرأةٍ شُغفت حبًّا. عادت وقرأت اسم المرسل على الغلاف: عبدالكريم.

ابتسمت قبل أن تعود لحيرتها فيما قد تفعله بما بين يديها.

أرادت أن تذهب وتخبر عمتها بكل هذه التفاصيل والمصادفة والحكاية التي ولدت من رحم حكايتها، إلا أنها تلكأت خوفًا من أن تظن عمتها أن حكايتها قد انتهت وبهذا يموت أملها الذي عبر بها ظلمة السنين الماضية.

فكرت كثيرًا، ثم اتخذت قرارها.

عرجت على عمتها في غرفتها، كانت العمة في حلمها الوحيد، تستند على سريرها ممسكةً بالكتاب الذي تنام بين أوراقهِ صورة مطر.

اقتربت منها وهي تنظر إليها بحنيّة ثم سألتها أن تعطيها

الكتاب الذي في يدها. تساءلت العمة عن السبب، لكن سين لم تجبها واكتفت بطلب الكتاب.

انتزعت سين صورة مطر من كتاب عمتها، وأسكنتها بين أوراق مطر. ثم أعطتها إياه قائلةً:

- هذا الدفتر أخف وزنًا، وأقل ورقًا حيث يمكنكِ الوصول لمطر بسرعة.

مسحت العمة بكفها على أوراق الدفتر وهي تحصي عددها حتى وصلت إلى الصورة. ابتسمت لسين وهي تقول لها:

- وأكثر دفئًا!

***

أرواح سين الضائعة تعود لقفصها

حينما عادت سين لغرفتها، وجدت بريدًا إلكترونيًا جديدًا ينبه بهِ هاتفها، كان من إبراهيم.

(عيناكِ دافئتان .. وأصابعكِ شرسة.

المرسل: ساعي البريد)

شغفها حبّا

يا من يقرأ أوراقي الآن، أنا لا أعرفك، وأنت قد تعرفني أو تجهلني، ولكنني أطلب منك شيئًا واحدًا فقط، في حال أنك وجدت دفتري هذا ولم تعرف مكاني، أن تسعى لأن يصل لتلك الواحدة التي لن يفهم كلماتي غيرها، والتي لم أكتب يومًا لسواها.

لها عينان تختطفان الحزن وتغربله حتى يغدو فرحًا إن نظرت إليها. إن لوحت بكفها رأيت علامة جمال استقرت عليها، وإن تحدثت أدركت ألاّ أحد يستحق أن يقرأ كلّ هذا ما عداها. شقية كأنها خلقت لتختزل متعة الدنيا في مشاكستها، وودودةٌ كزهرةٍ تنحني لتحيّيك كلما عبرت بجانبها.

وضعت لك عنوانها على دفة الدفتر الأمامية.

أرجوك أخبرها أني كتبت لها، وأني أحبّها.

محمد السالم

iMohammed

ISBN 978-603-01-9980-8

9 786030 199808